

محمد المختار الشنقيطي

الرحمة

مجموعة شعرية

مع ذكريات أدبية عن:
”أياميه مع الشعر“

وسم

للنشر والتوزيع

مجموعة شعريّة

مجموعة شعريّة



محمد المختار الشنقيطي



مجموعة شعرية

مع ذكريات أدبية عن:

”أيام مع الشعر“

وسم

للمعرفة والثقافة

جراح الروح

تأليف: محمد المختار الشنقيطي

القياس: 21.5 X 14.5 سم

عدد الصفحات : 136 صفحة

ISBN: 978-605-74686-6-6

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

جميع الحقوق محفوظة

واسم

للمعرفة والثقافة

+90 551 163 82 25

wasmbookstore.com

wasm.bookstore@gmail.com



WasmBookstore



Wasm_Bookstore

Fatih, Akşemsettin mahallesi, Halıcılar Cd, No 18, İstanbul



إله روح أبيه الذيه فتح قلبيه علمه محاسنه اللسانه
العريه، وألهمني حبه الشعر والبيان..
إله أفلاذ كبدي وأزهار بستانيه الزينه جعلوا الكون
فيه عينيه أكثر رونقاً وبرهه..
إله التيه بلسمه جراح روحيه، وأهاليه ميانيه ربيعاً
مضمخاً بالشذى وأنداء الصباح..



الفهرس

- نافذة^{١٣} 12
- أيامي مع الشعر 18
- البواكير الشعرية الأولى 21
- هُتْك أَسْتَار القصيدة 26
- خاوي الوفاض في صنعاء 32
- مع أبي زيدٍ والعلوج 40
- ابن الرومي ودموع أبي 50
- مع الرومانسيين العرب 57
- في صُحبة "بُوشْكِين" 61
- "أزهار الشر" في تكساس 67

76 - هنيهة في مسجد قرطبة

85 - مع محمد عاكف أرصوي

92 **نصوص الديوان**

92 - أغاني الحجاز

95 - دُمُوع النَّدى

97 - جانب الطُّور

101 - رفرقة الفجر

105 - يوسف وإخوته

108 - شَذَى

110 - قصيدة

111 - ظلال

113 - ذكريات



- 115 شكوى -
- 116 أشواق قدسية -
- 119 القدس والإعصار -
- 122 ياسين -
- 123 حجري -
- 126 الشهيد -
- 127 الصقر الجريح -
- 128 الليل -
- 130 الصباح المَطْل -
- 132 إسطنبول -
- 133 صنعاء -
- 134 سرايفو -
- 135 فريدٌ وفريدةٌ -





بسم الله الرحمن الرحيم

نافذة

”إن الجرح هو النافذة التي يدخل منها النور إليك“

(جلال الدين الرومي)

هذه مجموعة شعرية خفيفة، كتبها على مدى ثلاثة عقود، إذ لم يكن قرض الشعر في يوم من الأيام أكبر همّي، ولا أجهدت نفسي قط في الانضمام إلى نادي الشعراء، رغم ولعي بالشعر، ووفرة ما أحفظ منه. وقد أدركت من مطالعاتي المبكرة في النقد الأدبي أن الشعر دفقات من الوجدان، لا يحتمل التكلف، ولا يخضع لقوانين العرض والطلب. فكان الزمن الشعري في حياتي لحظات قصيرة، تطوفني من حين لآخر في شكل ومضات عابرة. وقد يغيب ذلك الطيف الزائر سنين عدداً، دون أن أستعجل رجوعه، أو أستنزل عطفه. وهذا الديوان الصغير هو حصاد تلك الومضات الشعرية الخاطفة، المتقطعة الانسياب.



ولن أقدم تقويمًا نقديًا لهذا الديوان، ولا رأيًا في قيمته الأدبية، إذ الشاعر ليس خيرَ من يتحدث عن شعره، فضلًا عن أن رأيي في قصائد الديوان ليس رأيًا واحدًا، إذ تعجبني بعض مقاطعه وتطربني، وأستغرب -وأنا كاتبها- من أين جاءت أحاسيسُها المرهفة، وتعايرها الرشيقة، بينما أجد في مقاطع منه برودةً في الشعور، وضعفًا في الصياغة، لا يناسبان ذائقتي الأدبية، ولا يستجيبان لحاسّتي النقدية. بل إنني لأجد في القصيدة الواحدة منه موجاتٍ تطول وتقصّر، ومواطنٍ تجمل وتذبل.

وسأكتفي في هذه النافذة بالقول إن النصوص التي تشكّل قوام هذا الديوان الصغير تتسم بالوحدة العضوية، وتداخلُ في لغتها وروحها، في قلبها وقالبها، تداخلًا كثيفًا، ولا أحسب أن هذا سيغيب عن عين القارئ النبيه. وتنقسم هذه النصوص الشعرية إلى خمسة أصناف: نصوص حجازية سينائية هي "أغاني الحجاز" و"دموع الندى" و"جانب الطور" و"رفرفة الفجر" و"يوسف وإخوته"، ونصوص وجدانية غرامية



هي "شذى" و"قصيدة" و"ظلال" و"ذكريات" و"شكوى"، ونصوص مقدسية فلسطينية هي "أشواق قدسية" و"القدس والإعصار" و"ياسين" و"حجري"، ونصوص ثورية متحفزة هي "الشهيد" و"الصقر الجريح" و"الليل" و"الصباح المطل"، ونصوص عن مدن أو بلدان هي "اسطنبول" و"صنعاء" و"ساراييفو". وقد رتبتُ الديوان على هذه الأصناف الخمسة، فجمعتُ كل صنف معاً إبقاءً على روحه المشتركة رغم تباين زمن الكتابة ثم ختمتُ الديوان بقصيدة «فريد وفريدة»، وهي متفردة في بابها في الديوان، لأنها تهنة لصديق عزيز بزفافه..

كما مهدتُ للديوان بمدخل ضافٍ سمّيته "أيامي مع الشعر"، اعترافاً بأن الزمن الشعري في حياتي كان قصيراً للغاية. وقد تضمّن المدخل حديثاً عن روافد غدت ذاتي الأدبية، وأوابد من الطرائف الأدبية التي عشتها. لقد كان يستهويني دائماً أن يتحدث الشاعر والكاتب بضمير المتكلم، فيتيح لي الولوج إلى عوالم نفسه، وفهم حياته الباطنية، فأردت أن أنحو هذا النحو



مع قرَّائي الأكارم . وللقارئ الكريم أن يعتبر "أيامي مع الشعر" سيرة ذاتية أدبية من كاتب شغلته السياسة والفكر عن الأدب والشعر، أو كشفاً عن المخاض التكويني لنصوص هذا الديوان، أو مجرد إمتاع ومؤانسة، وتسترُّ على ندرة الشعر بوفرة النشر . فقد طال هذا المدخل كثيراً، حتى طغى على الديوان ذاته، وفي عالم الشعر والأدب متَّسع .

أما بعدُ . . فهذه جراحٌ روحي بين يديك، عسى أن تجد فيها مرآةً لروحك، أو نافذةً على شغاف قلبك . فعجائبُ القلب لا تنقضي، وجراح الروح نوافذُ للنور، كما قال الشاعر العظيم جلال الدين الرومي: "إن الجرح هو النافذة التي يدخل منها النور إليك ."

محمد المختار الشنقيطي

طرابزون، تركيا

٠٧ ذو الحجة ١٤٤٢هـ

١٨ يوليو ٢٠٢١م



أيامي مع الشعر





أياميه مع الشعر

”يا كتابي! كم سنة عشتَ في نفسي!“

(رسول حمزاتوف)

كتب الأديب الداغستاني رسول حمزاتوف (١٩٢٣-٢٠٠٣) في صدر روايته البديعة، داغستان بلدي، يقول: ”يا كتابي! كم سنة عشتَ في نفسي!“^١ وهي جملة تعبّر عن طول اختمار النص الأدبي في قلب الشاعر، وعن راحة باله حين يتحرّر من عبئه، ويرمي به إلى الناس. وقد قدّم لنا أديب العربية عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣-٢٥٥هـ / ٧٨٠-٨٦٩م) تصنيفاً ضمّنيّاً لأنماط الشعراء، وذلك في ثنّايا حكاية حكاها تقول إن الشاعر ”مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق، فسأله أبوه عنهما، فقال: جريرٌ يغرف من بحر، والفرزدق ينحتُّ من صخر.“^٢

١- رسول حمزاتوف، داغستان بلدي، ترجمة: عبد المعين الملوحي ويوسف حلاق (دمشق: دار نينوى، ١٩١٥)، ١٢.

٢- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٨)، ٢ / ١١٧.



وقد يميل البعض إلى ترجيح الشاعر الذي يغرف من بحر، لما توحى به هذه الصفة من سعة العطن، وقُرب المأخذ، وفيض القريحة، وذلك كان ترجيحَ والدِ مالك بن الأخطل بعد أن وصف له نجله ذينك الشاعرين العظيمين. وقد يرجح آخرون الشاعر الذي ينحت من صخر، لما توحى به هذه الصفة من طول النفس، وتعتيق النص، وبراعة الصنعة، وهذا ترجيحُ عدد من النقاد الأقدمين والمعاصرين. ولا أستطيع تصنيف نفسي ضمن أيٍّ من الصنفين، فلستُ أتمى بداهةً إلى الشعراء الذين يغرفون من بحر، أما الذين ينحتون من صخر فلا أستطيع الادّعاء أن شعري يرقى إلى شعرهم، وإن جمعتُ بيني وبينهم قلة الشعر وندرة كتابته.

ومهما يغرف الشاعر من بحر، أو ينحت من صخر، فإن خير الشعر ما جاء فيضاً من الخاطر، ودقاً من الوجدان،

دون تكلف ولا تعسفٍ . فليس الشعر صنعة منطقية بمقدمات
وتائج، ولا تفكيراً علمياً بمنهجيات باردة، بل هو فيضٌ شعوري
من أعماق النفوس . كما أن التعبير عنه يحسن أن يكون بلغة
الإيماء والإيحاء، لا بالأسلوب التقريري البارد، وقديماً قيل: "إن
لغة الشعر لا تصلح لدار القضاء . " ونظراً لهذه الطبيعة الوجدانية
والإيحائية، فإن الشاعر قد لا ينتبه أحياناً إلى المعاني الخفية
والدلالات المكونة في شعره، حتى ينبّه عليها القراء النابهون .
وقد حدث معي شيء من ذلك أكثر من مرة، ومن أمثلته أنني
لما كتبت قصيدتي "دموع الندى" قراتها على صديقي الطبيب
الأديب اليمني الأميركي، الدكتور زهير شهاب، وهو من خيرة
النبلاء، ونوادير الأذكياء . وحينما وصلتُ إلى هذين البيتين:

سندفن الآمنا في الحشا ونكتم آهاتنا في الصدور
ونعبر للنور ملء الخطى ونبذل أرواحنا في العبور



سألني الدكتور زهير ضاحكا: "هل تقصد العبور في حرب رمضان ١٩٧٣؟" فقلت: "لا والله ما قصدتُ ذلك العبور في ذاته، ولا خطري بالي حين كتبتُ القصيدة، لكن يبدو أن عبور رمضان ١٩٧٣ تسرَّب إلى عقلي الباطن دون تفكير مني".

البواكير الشعرية الأولى

لقد بدأتُ قرض الشعر وأنا شاب يافع لا يتجاوز عمري الخمسة عشر عاما تقريبا. لكن جلَّ ما كتبه آنذاك -رغم أنه محكم النَّسج من حيث الوزن والإيقاع- كان شعرا تقليديا خشناً، يسود فيه تقليد الأقدمين تصويراً وتعبيراً. لذلك لم أعبأ به، ولم أضمنه هذا الديوان، بل أهملته نسياناً أو تناسياً، لعدم اقتناعي بقيمته الأدبية. ومن قصائد تلك المرحلة المبكرة من حياتي قصيدة نسيبٍ رجزية كتبتها شوقاً إلى قريتي الوادعة (الجريف)،

وبدائها:

حيّ منازل "الجُرَيْفِ" وانْزِلِ به فنعم أهل ذاك المنزلِ
وبـ"الهَضْبِيَّاتِ الثَّلَاثِ الصُّفْرِ" قِفْ و"مَشْعَبِ الْجُنْدِ" و"قَلْبِ الْجَمَلِ"

والقصيدة مكتوبة على النهج القديم الذي يعدد فيه الشاعر العربي منازل الأحبة، ويقف على أطلالهم ومواطن نجوعهم. ومن المَواطن المذكورة هنا "قلب الجمل" وهو هضبة زرقاء جميلة تبعد عن قريتنا نحو العشرة كيلومترات، و"مَشْعَبِ الْجُنْدِ" وهو مَضِيق في حَضْنِ "قلب الجمل"، وقد سُمِّيَ بهذا الاسم لأن أحد القادة المقاومين للاستعمار الفرنسي من منطقتنا، هو المرحوم الشيخ

١ - نطقه باللهجة الحَسَّانِيَّة -وهي اللهجة العربية السائدة في موريتانيا ومنطقة الصحراء الكبرى- هو «كَلْبُ الْجُمْلِ»، إذ يسمي الموريتانيون الهضبة المتوسطة الحجم «قلب»، وينطقونها بالكاف السبئية (ك).

٢ - اسمه بالحسانية «شَلَخَةُ الصَّنَادِرَةِ»، والكلمة الأولى عربية الأصل، يقال شلَخَه بالسيف أي قطعَه، والثانية يبدو أنها تعريب لكلمة «الجنود» soldiers الفرنسية. و«المَشْعَب» في العربية الطريق، خصوصا إذا كان منشعبا عن غيره. قال الكميّ:
ومالٍ إلا آلَ أحمدَ شيعَةٌ ومالٍ إلا مَشْعَبُ الحَقِّ مشعَبٌ



ولد عبدك (ت ١٩٥٨) أخذَ فيه جمعًا من الجنود الفرنسيين على حين غِرّة، وقتل منهم مَقْتلة لا تزال ذكراها حية في أذهان أهل قريتنا رغم مُضيّ أكثر من قرن عليها . وقد أخبرني خالي محمد رحمه الله بتفاصيل هذه الواقعة نقلًا عن قائدها البطل الشيخ ولد عبدك الذي حدّثه عن تفاصيلها وجها لوجه، ووصف له مطاردته لجنود الاحتلال الفرنسي في شِعب الجبل الأشمّ الذي يفصل قريتنا عن مدينة ”النعمة“، حيث كان المركز الإداري للسلطة الاستعمارية الفرنسية.

وقد أُسرَ البطل الشيخ ولد عبدك مع أخيه الزوين، وأبيه محمد الذي كان القائد العام للمقاومة في منطقتنا، وحكم عليهم الفرنسيون بالنفي إلى دولة ساحل العاج التي كانت مستعمرة فرنسية آنذاك، حيث توفي الوالد والأخ في المنفى، ورجع الشيخ لموريتانيا بعد إخماد المقاومة العسكرية. وقد تربيتُ وأبناءُ قريتي على التزم

بالأغاني الشعبية التي تحلّد تلك الوقعة في "مَشْعَب الجند" قرب
قريتنا، وغيرها من وقائع المقاومة. ومنها أغنية تمجّد عملية جريئة
استطاعت فيها المقاومة قطع خيوط التلغراف الفرنسية، ولا تزال
كلمات تلك الأغنية تتردد في ذاكرتي إلى اليوم، وهي تنفذ إلى شغاف
القلب بما فيها من عمق وصدق، رغم بساطة كلماتها^١. وربما
يصدق عليها قول الشاعر محمد إقبال في قصيدته عن نهر قرطبة:

وَأَغْنِيَةُ ابْنَةِ الْفَلَاحِ تُطْرِبُ رَغْمَ رِكَّتِهَا
بِرَقَّتِهَا إِذَا غَنَّتْ وَاهْتَبَتْهَا وَأَثَّتْهَا^٢

وقد اعترف الضابط والمؤرخ الفرنسي بول مارتري (١٨٨٢-١٩٣٨)

١ - تقول كلمات الأغنية باللهجة الحسانية:

عَنَّا يَا السُّلَّكُ امْشِ كَوْلَهَا
عَنَّا يَا السُّلَّكُ امْشِ كَوْلَهَا
لِخَوِيْبِ اخْلَاطْ وانْكَطَعْ مَوْلَهَا
وَلَا بَتْنَاتْ انْوَلْوَلَهَا

ومعناها: «أذهب أيها الخط [=خط التلغراف] وقلها [للفرنسيين]. فالبرج قد تهدّم وقُطِعَ
دابره، وإذا أعيد بناؤه فسنعيد الكرة عليه.»

٢- محمد إقبال، ديوان جناح جبريل، ضمن مجموعة دواوينه (دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٧)، ١/ ٤٨١.



بعملية ناجحة ضد خطوط التلغراف الفرنسية بقيادة أسرة آل عبدك في شهر أبريل ١٩١٦، وبأن قوات المقاومة «أتلقت خط التلغراف على مسافة طويلة نسبياً». ^١ فلعلها هي العملية التي تحيل عليها كلمات تلك الأغنية الملحمية الجميلة. كما اعترف مارتي بوفاة الأسيرين محمد ولد عبدك والزوين ولد عبدك في المنفى بسبب المرض والإهمال الطبي. وكان الفارق بين وفاتيهما عشرة أيام فقط، حيث توفي الوالد يوم ٢ فبراير، والولد يوم ١٢ فبراير من العام ١٩١٨، ^٢ رحمة الله عليهما. وإنما استطردت في القول إكراماً لروحَي ذينك الشهيدين المنفيين، وأخييهما البطل. فموضوعنا هنا هو الشعر والأدب، ويكفي أن أقول إن تلك الأغاني الشعبية كان لها أثر عميق في ذاتي، فمنها عشقتُ الشعر الملحمي، ومنها اكتسبتُ الأذن الموسيقية التي لا أغنى عنها لكل من يكتب الشعر.

١ - انظر: بول مارتي، القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني وقصة الاحتلال الفرنسي للمنطقة،

ترجمة محمد محمود ولد ودادي (بنغازي: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ٢٠٠١)، ١١٤.

٢ - انظر: مارتي، القبائل البيضانية، ١١٥.

هتلل أأأأ القصيدة

أما كيف أكتب القصيدة، فقد سأل الشاعر نزار قباني هذا السؤال، فتهرب من الإجابة، ثم ردَّ بظرافة: «إذا علمت القصيدة أنني كشفت سرَّها فستسفك دمي»! ولكنني -التزاماً بالصدق مع القراء في الحديث عن أيامي مع الشعر دون مواربة- سأخبرهم بالطريقة الغريبة التي أكتب بها شعري، حتى وإن كان في ذلك كشفٌ لسرِّ القصيدة، وهتكٌ لسرِّها. فقد كتبتُ بعض قصائدي في ساعة أو ساعتين، وكتبتُ بعضها في يوم أو يومين. لكن بعضها الآخر ولد ميلاداً غريباً، فرغم أنها قصيرة جداً -شأنها شأن كل نصوصي الشعرية- فقد بدأتُ كتابتها، ثم لم أكملها إلا بعد سنين، قد تصل عقداً من الزمان. وكثيراً ما كتبتُ البيت الأخير من القصيدة قبل أي بيت آخر! وتوجد في أغلب الحالات فجوة زمنية واسعة بين الميلاد الشعوري لقصيدتي وميلادها التعبيري.



والغالب أن تولد الومضة الشعرية في قلبي فأبدأ كتابة النص، ثم لا تسعفني الطاقة الشعورية والتعبيرية على الاستمرار، فأترك النص جانباً إلى أن تعود تلك الومضة في لحظة أخرى - قد تكون بعد عدة أعوام - فأكمل بناء النص.

ففي عام ٢٠٠٤ - مثلاً - سافرتُ إلى مدينة سانتا كلارا بولاية كاليفورنيا الأميركية، بدعوة من الجمعية الإسلامية الأميركية MAS لأقدم محاضرات لشباب المسلمين في المدينة، وفي تلك الرحلة كنت أقرأ كتاب الشيخ أبي الحسن الندوي روائع إقبال في ترجمته الإنكليزية *Glory of Iqbal*، فمررتُ بهذه الجملة في وصف الندوي لشخصية المسلم على لسان محمد إقبال:

“Even the whole world cannot pay his price, nor can he be bought by anyone except by his Lord.”¹

1- Syed Abul Hasan Ali Nadwi, *Glory of Iqbal*, translated from Urdu by Mohammad Asif Kidwani (Lucknow: The Academy of Islamic Research and Publications, 1979),

ومعناها الحرفي: "لا يستطيع العالم كله دفع ثمنه، ولا يستطيع أحد شراءه إلا مولاه". فقلتُ في نفسي: هذا الوصف لا يصدق إلا على الشهيد، وطافت بخاطري ومضة شعرية في تلك اللحظة، فصُغتُ ذلك المعنى في شكل بيت شعري يصف الشهيد بأنه:

لا يملكُ الناس في أمثاله ثمنًا لكنَّ ربَّ البرايا يملكُ الثمنًا

ثم كتبتُ البيت في قصاصة ورق، ووضعتها في جيبِي، واشغلت بغايات رحلتي، ولم يكن منها قرصُ الشعر في هضاب كاليفورنيا وغاباتها الساحرة. ودارت السنون وذلك البيت اليتيم رابضاً في تلك القصاصة، بعد أن نسيته وأضعت مكانه. ثم وجدتُ القصاصة يوماً بين أوراقِي، فأكملتُ القصيدة، وكان ذلك البيت آخر أبياتها، وهي قصيدة "الشهيد" في هذا الديوان.

وفي عام ٢٠١٠ زرت مدينة اسطنبول لأول مرة، وسرعان



ما وقعتُ في حَبائلِ حُبِّها، وسحرني جُمُعُها بين جمال الطبيعة
الأسرة وعَبَقِ التاريخ الحضاري الإسلامي. وكان لمساجدها
التاريخية العظيمة أثرٌ خاص في نفسي، فبدأتُ كتابة قصيدة عن
اسطنبول، لكن قريحتي لم تُسعني إلا بيت واحد يصف قباب
المساجد في اسطنبول هكذا:

والقبابُ التي كَهَلَاتِ بَدْرِ سَاجَاتٍ على أديم الليالي

وظل هذا البيت مدفوناً في ثنايا دفتر صغير لبضع سنين، ثم
فاضت القريحة ببقية النص الذي هو الآن قصيدة "اسطنبول" في
هذا الديوان، ويحتل ذلك البيت الرقم الخامس ضمن أبياتها.

ونظراً لهذه الفجوة الزمنية بين الميلاد الشعوري للقصيدة
واكتمال التعبير عنها، فإن تواريخ قصائد هذا الديوان فيها تجوُّز،
والتاريخ الذي أثبتته هنا هو تاريخ ميلاد القصيدة شعورياً وبداية



كتابها، وليس تاريخ اكتمالها نصّاً ناجزاً. وتذكرني هذه الطريقة في كتابة الشعر بقصة تُروى عن أحد الشعراء الشناقطة الأقدمين هو مولود بن أحمد الجواد، خلاصتها أنه عجزَ عن إكمال البيت الأول من قصيدة له حَوْلًا كاملاً، حتى حدث ما فجر طاقته التعبيرية، فجاء الشطر الثاني من البيت فيضَ الخاطر بكل يسر. وقد أورد العلامة الأديب أحمد بن الأمين الشنقيطي (١٨٧٢-١٩١٣) القصة فقال: ”ومن ظريف ما اتَّفَقَ له، أنه أراد قول قصيدة، فنظم الشَّطْرَ الأول وهو:

أَمْرِعُ الْغُصْنُ ذَا أُمِّ تَلْكَ أَعْلَامُهُ

فأرتجَ عليه سنة، فورد يوماً منهلاً ليسقي جملاً له، فتخاصمت جارتان في المنهل، فقالت إحداهما للأخرى: والله ما ذلك كذلك، ولا كانت أيامه كما تقولين، أو ما هو قريب من هذا. فضرب جملة من غير أن يسقيه، ودخل الحيّ وهو يجري به،



فظن الناس أنه رأى ما يُذعره، فسألوه، فأخبرهم بأنه وجدَ
شطراً يُتم به مطلع قصيدته فقال:

أمرِبعُ الغُصْنِ ذا أمْ تلكَ أعلامه؟ لا هوَ هوَ ولا الأيامُ أيامُه.^١

وقد اشتهر الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سُلمى بأنه كان
يقضي عاماً كاملاً في تشذيب القصيدة الواحدة وتهذيبها قبل أن
يخرجها للناس، وأشار إلى ذلك الشاعر الشنقيطي سيدي محمد
بن الشيخ سيديا (١٨٣٢-١٨٦٩)، وجعل منه حُجَّةً على أن
الشعر صعبُ المراس:

والحوْلُ يَكْثُرُه زهيرٌ حُجَّةٌ أن القوافيَ لَسُنَّ طَوْعَ الإِمْعِي^٢

وحالة زهير الموصوفة هنا أقربُ إلى الإيغال المتعمد في تجويد

١- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (القاهرة: الشركة الدولية للطباعة، ٢٠٠٢)، ١٩٣.

٢ - الشنقيطي، الوسيط، ٢٧١.

الصنعة الأدبية، وليس الانتظار العفوي لفيض الخاطر الشعري، على نحو ما رأينا في قصة مولود بن أحمد الجواد. ولعل الصيغة المعاصرة لما كان يفعله زهير هي تقنية "التشذيب"، وهي حكمة تعلمتها من الشاعر الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا (١٩٢٠-١٩٩٤)، فقد أخذتُ عنه درسا أدبيا مهما، فكنتُ إذا كتبت قصيدة شذبتها تشديبا، بحذف كل ما يمكن حذفه منها، حتى لا يبقى إلا جوهرها الذي لا قوام لها بدونه، وقد أحذف جُلَّ أبياتها، فلا أستبقى منها سوى النزر القليل. ولعل هذا مما يفسر قصر نصوصي الشعرية.

غاويح الوفاض في صنعاء

اعتاد الناس في بلاد شنقيط (موريتانيا) بناء رصيدهم اللغوي والأدبي في المدارس الأهلية المعروفة باسم "المحاضر" من خلال



حفظ القرآن الكريم، ثم حفظ أحد النصوص الأدبية التأسيسية. ومن النصوص التي اعتادوا حفظها: "المعلقات العشر"، و"ديوان المتنبي"، و"ديوان غيلان"، و"مقامات الحريري". وكان من فضل الله عليّ أنني حفظت القرآن الكريم في عمر الحادية عشرة تقريبا، بجرص والديّ -المختار وفاطمة- وهمّتهما، وعمق إيمانهما، رحمهما الله تعالى. ثم كان من حسن حظي أن والدي كان محبا لمقامات الحريري، محتفظا بنسخة منها في مكتبته الشخصية، بشرح الأديب الأندلسي أحمد بن عبد المؤمن الشّريشي (٥٥٧- ٦١٩هـ / ١١٨١-١٢٢٣م). وكان شرح المقامات للشّريشي، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وإحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ونظم الغزوات النبوية لأحمد البدوي الشنقيطي، من أحبّ كتب الوالد إليّ، ومنه اكتسبتُ محبة الكتب الأربعة في عمر مبكر. وقد شجعني الوالد على قراءة مقامات الحريري وحفظها، فحفظتُ العديد منها وأنا فتى يافع

فيما بين العاشرة والثانية عشرة من عمري تقريبا، ولا أزال أذكر متعة تلك الجلسات بين يديه، وأنا أقرأ إحدى المقامات، وهو يشرح لي معانيها، ويفكُّ مغاليقها، وسط الضحكات من مغامرات أبي زيد السَّروجي، بطل المقامات الخيالي.

ومقامات الحريري من تأليف أحد عمالقة الأدب العراقيين، هو أبو محمد قاسم بن علي الحريري البصري (٤٤٦-٥١٦ هـ/ ١٠٥٤-١١٢٢م)، وهي من عجائب النصوص الأدبية العربية التي تكاد تجتمع من الألفاظ العربية أجملها وأحسنها رونقا. ولعله من النادر أن نجد نصا -بعد القرآن الكريم والحديث النبوي- قد جمع من دُرر الألفاظ العربية مثلما جمعت مقامات الحريري. وتكفي في قيمة هذه المقامات شهادة شيخ البلاغيين، جار الله الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨ هـ/ ١٠٧٥-١١٤٤م)، الذي يقول:

أُقْسِمُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَمَشْعَرِ الْحَجِّ وَمِيقَاتِهِ



أَنْ الْحَرِيرِيَّ حَرِيٌّ بِأَنْ نَكْتَبَ بِالتَّبَرِّ مَقَامَاتِهِ

وقد تشبعتُ ذاكرتي الطفولية بالألفاظ العربية الصقيلة التي صاغ بها الحريري مقاماته، وهذا الكسب اللغوي هو ما كان والدي -رحمه الله- يدفعني إليه. وكان من طرائف الأقدار أن سافرتُ إلى اليمن لتدريس النحو العربي في جامعة الإيمان بصنعاء مطلع العام ١٩٩٧، وكنت صحبة صديقي السياسي والمفكر الإسلامي الموريتاني المعروف محمد جميل منصور في نفس الرحلة، وهو أيضاً كان منتدباً للتدريس بالجامعة ذاتها. وحينما حطت الطائرة في مطار صنعاء سحراً كان أول ما تذكرته هو "المقامة الصناعية"، وهي أولى مقامات الحريري. فبدأتُ أردد -وأنا خارجٌ من المطار- عبارات الحريري التي

١- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولبُّ لُبَابِ لسان العرب (القاهرة: مكتبة الخانجي،

١٩٩٧)، ٦ / ٤٦٢.

صَدَّرَ بِهَا تِلْكَ الْمَقَامَةَ: "لَمَّا اقْتَعَدْتُ غَارِبَ الْاِغْتِرَابِ، وَأَنَا تَنِي
الْمُتْرَبَةُ عَنِ الْأَتْرَابِ، طَوَّحْتُ بِي طَوَائِحُ الزَّمَنِ، إِلَى صَنْعَاءِ الْيَمَنِ،
فَدَخَلْتُهَا خَاوِيَّ الْوَفَاضِ، بَادِي الْإِنْفَاضِ، لَا أَمْلِكُ بُلْغَةً، وَلَا أَجْدُ
فِي جِرَابِي مَضْغَةً."^١

لَقَدْ وَجَدْتُ نَفْسِي وَأَنَا أَحْطُ فِي صَنْعَاءِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُتَقَمِّصًا
شَخْصِيَّةَ الْحَارِثِ بْنِ هَمَامٍ رَاوِيِ الْمَقَامَاتِ، وَأَبِي زَيْدِ السَّرُوجِيِّ
بَطْلَمَا، وَلَمْ تَكُنْ أَوْجُهُ الشَّبَهَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمَا بِالْقَلِيلَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ
الصَّنْعَانِيَةِ الْبَارِدَةِ. فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَنَا يَوْمَذَلِكَ حُبُّ الْمَغَامَرَةِ، وَالْوَلَعِ
بِالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَضِيقُ ذَاتِ الْيَدِ، فَكُنْتُ حَقًّا وَصَدَقًا "خَاوِيَّ
الْوَفَاضِ، بَادِي الْإِنْفَاضِ". عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْإِحْسَاسَ بِالْاِغْتِرَابِ
وَوَخْلُوِ الْوَفَاضِ سُرْعَانَ مَا تَلَاشَى حِينَ اسْتَقْبَلْنَا عِنْدَ مَدْخَلِ
الْمَطَارِ الشَّيْخِ الْحَافِظِ مُحَمَّدِ الْمُخْتَارِ الْحَسَنِ، وَهُوَ مِنْ أَبْنَاءِ بَلَدِنَا

١ - انظر: أحمد بن عبد المؤمن الشَّريشي، شرح مقامات الحريري (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦)، ١ / ٣٧.



الذين سبقونا بالالتحاق بجامعة الإيمان في صنعاء وقد استقبلنا
بهجة وترحاب وهو يردد البيت السائر:

لا بدَّ من صنْعا وإن طال السَّفرُ وإن تَحَنَّى كلَّ عودٍ وانكسرُ
ومكثتُ في صنعاء عامين، فوقعتُ في حبها، وعشقتُ عبق
التاريخ في أسوارها القديمة، وصفاء فطرة أهلها، ورائحة البُنِّ
اليمني تعطر شوارعها العتيقة ممزوجة بأنداء الصباح. وكانت
من ثمار ذلك قصيدة صنعاء التي كتبها في واشنطن عام ١٩٩٩
بعد رحيلي من اليمن بنحو عام.

ومن الذكريات الأدبية الجميلة التي ظلت عالقة بذهني
من مقامي باليمن (١٩٩٧-١٩٩٨) زيارتي للأديب اليمني الكبير
الدكتور عبد العزيز المقالح يوم كان رئيس جامعة صنعاء، فقد
اقتحمتُ عليه مكتبه دون معرفة سابقة أو موعد مرَّتب، بعد
ما لاحظت أن بابه مفتوح لكل طارق. وأهديته بضع قطع

شعرية لي، فرحَّب بي بكرم وتواضع يمانبي أصيل، ثم حدثني حديثاً طريفاً عن رحلة له إلى موريتانيا، خلاصتها أن الجامعة العربية بعثته في الستينيات على رأس وفد، ليقرر ما إن كان الموريتانيون عرباً يستحقون أن تُقبل عضوية دولتهم بجامعة الدول العربية، ضمن التحضير للرد على طلب موريتانيا الانضمام للجامعة العربية. وقد أطلع الدكتور المقالح خلال رحلته تلك على جوانب من الحياة الثقافية في موريتانيا. قال: فلما اكتشفتُ نمط حياة الموريتانيين، وولعهم بالشعر العربي، وتمرُّسهم به، كتبتُ للأمين العام لجامعة الدول العربية تقريراً مفصلاً ختمته بما معناه: "إذا كان يوجد عربٌ على ظهر الأرض اليوم فهم هؤلاء القوم"! وخرجتُ من مكتب الدكتور المقالح، مبتهجاً بكرمه، ومزدهياً بهذه الشهادة الأدبية لأهل بلدي من رجل في مثل مكانته الثقافية والأدبية.

ومن ذكرياتي الأدبية في صنعاء أن الشيخ الشهيد أحمد



ياسين (١٩٣٧-٢٠٠٤) زارنا من فلسطين، ضمن جولة له في عدد من الدول العربية، ومنها اليمن، وقررت رئاسة جامعة الإيمان التي أدرّس بها أن تنظم له حفل استقبال حاشد، فكتبْتُ أبياتاً في الترحيب به، لكنّ منظمي الحفل لم يسمحوا لي بقراءتها أمام الشيخ ياسين، لأنها لم تكن ضمن جدول الزيارة، فسأني ضياع تلك الفرصة الثمينة، ثم زالت تلك المشاعر السلبية من نفسي، واقتنعتُ بسداد قرارهم بعد أن ألقى شاعر يمني قصيدة طويلة جميلة في الحفل، لا تُساوي أبياتي القليلة البسيطة شيئاً مقارنةً معها، فعرفتُ يومها جانباً من الحكمة اليمنية لم أكن أعرفه. وقد أثبتُ أبياتي في هذا الديوان بعنوان "ياسين". ولم أخرج من صنعاء خاوي الوفاض كما دخلتها، بل خرجتُ منها حاملاً معي ديوان لعيني أمّ بليقيس لشاعر اليمن عبد الله البردوني (١٩٢٩-١٩٩٩)، بعد أن سحرني البردوني بجمال شعره، ونحته اللغوي الذي يضاهي في دقته وحسن صنعه نحتَ أهل اليمن للصخر الصنعاني ذي الألوان الطبيعية الزاهية.

مع أبيه زهير والعلج

وعوداً إلى مقامات الحريري أقول: إن هذه المقامات ليست مجرد نص لغوي أو أدبي، بل هي وثيقة حضارية مشحونة بالدلالات الثقافية والتاريخية، كما أنها من أكثر النصوص تعبيراً عن وحدة الفضاء الحضاري الإسلامي، ويكفي أن يتنقل القارئ مع الحريري بين الحواضر الإسلامية العريقة، التي سُمي بها أغلب مقاماته، ليدرك الوحدة العضوية بين شعوب الحضارة الإسلامية. فقد سُمي الحريري بعض مقاماته على حواضر حجازية (المقامة المكية، والطيبية)، ويمينية (المقامة الصناعية، والزبيدية، والصَّعدية)، وشامية (المقامة الدمشقية، والحلبية، والمعرية)، ومصرية (المقامة الإسكدرانية، والدمياطية، والحلوانية)، وعراقية (المقامة البصرية، والكوفية، والسنجارية)، وأناضولية (المقامة الفارقية، والنصيبية). ولم يقف الحريري عند قلب العالم الإسلامي، بل



توسّع إلى مناطق أخرى، فكتب مقامات عن الريّ، وشيراز، وسمرقند، والمغرب، وغير ذلك من حواضر الإسلام وأقاليمه.

وفي المقامة الإسكدرانية ألمح الحريري على لسان راوي المقامات الحارث بن همام، إلى أنه طاف العالم الإسلامي كله: "طَحَا بي مَرَحُ الشَّبَاب، وهَوَى الاكْتِسَاب، إلى أن جُبْتُ ما بين فَرْغَانَةَ وَغَانَةَ."^١ وتكاد "فرغانة" و"غانة" تطابقان حدود العالم الإسلامي آنذاك من الشرق إلى الغرب، وتكادان تطابقان حدوده اليوم أيضا، كما لاحظ عالم الجغرافيا السياسية المصري جمال حمدان^٢. ففرغانة توجد الآن في جمهورية أوزبكستان، أما غانة فليس المقصود بها على لسان الحريري جمهورية "غانا" المعاصرة التي ورثت اسمها، بل سلطنة غانة الإسلامية البائدة، التي توجد أطلال عاصمتها "كومي صالح" اليوم في جنوب شرق

١ - انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ١ / ٢٣٢.

٢ - جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧١)، ١٥.

موريتانيا، حيث وُلدت ونشأت. وكانت سلطنة غانة تنبض بالحياة التجارية والثقافية في أيام الحريري، نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس، وعنها يقول الشَّريشي شارح المقامات: "وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام في أهلها، وبها مدارس للعلم. وبها من تجار المغرب كثير، يدخلون التجارة، فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر."^١

على أنني تعاملت مع مقامات الحريري في تلك الحقبة المبكرة من حياتي باعتبارها مجرد نص أدبي خيالي، غايته بناء الرصيد اللغوي، وتهذيب الحاسة الأدبية. ولم أكتشف بعض الدلالات التاريخية لمقامات الحريري إلا بعد ذلك بأعوام مديدة، وأنا أدرس تاريخ الأديان بجامعة تكساس في الولايات المتحدة، حيث بدأت تتردد أسماء مدن وبلدات من الأناضول والشام

١ - الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ١ / ٢٣٣.



والعراق والجزيرة على لسان أستاذي الأميركي لتاريخ الحروب الصليبية الدكتور جون هاو. ومن هذه البلدات "الرّها" التي يسمونها بالإنكليزية "أديسّا" - وكانت مقرّ أول إمارة صليبية أسّسها الغزاة- و"سروج" البلدة القريبة منها، وهي مسقط رأس أبي زيد السروجي بطل المقامات.

وقد أصبحت مقامات الحريري مصدر شهرة لبلدة سروج، ولذلك نجد الجغرافي الكبير ياقوت الحموي يكتب عنها: "سروج: فعول، بفتح أوله، من السّرج... وهي بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر... غلب عياض بن غنم على أرضها، ثم فتحها صلحاً على مثل صلح الرّها في سنة ١٧ في أيام عمر رضي الله عنه، وهي التي يُعيد الحريري في ذكرها ويُبدي في مقاماته.^{١٤}

١ - ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥)، ٣ / ٢١٦. وعياض بن غنم أحد أجياد الصحابة السابقين وشجعانهم، شهد بداراً وأحداً والخندق وغيرها، وهو فاتح إقليم الجزيرة الفراتية بما فيه «سروج»، وكان يلقّب «زاد الراكب» لكرمه. انظر: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (القاهرة: دار هجر، ٢٠٠٨)، ٧ / ٥٨٢ - ٥٨٣.

ففي أروقة جامعة تكساس بدأتُ أفكر في الدلالات
التاريخية لنصوص الحريري العالقة بذهني منذ أيام الصبا، وأتذكر
الشكوى المريعة المتردة على لسان أبي زيد من "الأعادي"
الذين أخرجوه من بلده الجميلة الوادعة سروج، فتركوا في نفسه
المأْمُضاً، وغصّة دائمة. يقول الحريري في المقامة المكية على
لسان أبي زيد السروجي:

سَروِجُ داري وَلَكِنْ كَيْفَ السَّيْلُ إِلَيْهَا
وَقَدْ أَنَاخَ الْأَعَادِي بِهَا وَأَخْنَوْا عَلَيْهَا
فَوَالَّتِي سِرْتُ أَبْغِي حَطَّ الذُّنُوبِ لَدَيْهَا
مَا رَاقَ طَرِيقِي شَيْءٌ مُذْ غَبْتُ عَنْ طَرَفَيْهَا

وفي المقامة الملطية يحدد أبو زيد شوقه إلى موطنه سروج، ويشكو
فقدان بهجة الحياة منذ أن اضطر إلى هجرها:

١ - انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٠٤/١.



كُلُّ شَعْبٍ لِي شَعْبٌ وَبِهِ رُبْعِي رَحْبٌ
غَيْرَ أَنِّي بِسَـرُوجٍ مَسْتَهَامُ الْقَلْبِ صَبٌ
هِيَ أَرْضِي الْبَكْرُ وَالْجَوُّ الَّذِي فِيهِ الْمَهَبُ
وَالِي رَوْضَتِهَا الْغَنَاءُ دُونَ الرِّوْضِ أَصْبُو
مَا حَلَا لِي بَعْدَهَا حُلُوٌّ وَلَا أَغْذَوْذَبَ عَذْبُ

وفي المقامة النجرائية يتردد صدى الحنين إلى سَـرُوجٍ، والبكاء
على مراتع الصبا ومغاني الشباب في ربوعها:

سَـرُوجُ مَطْلَعُ شَمْسِي وَرُبْعُ لَهْوِي وَأُنْسِي
لَكِنْ حُرِمْتُ نَعِيمِي بِهَا وَلَذَّةُ نَفْسِي
وَأَعْتَضْتُ عَنْهَا اغْتِرَاباً أَمْرَ يَوْمِي وَأُمْسِي^٢

١- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٧٧/٣.

٢- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٧٥/٥.



ولم يصرح الحريري بهوية "الأعادي" الذين هَجَرُوا بطله أبا زيد السروجي من بلدته الجميلة إلا في المقامة الصورية -نسبة إلى مدينة صور- حيث تبين أن هؤلاء الأعادي هم "العلوج"، أي الفرنجة الصليبيون الذين اجتاحتوا قلب العالم الإسلامي في عاصفة دموية، في ختام القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وسيطروا على مدينة الرها عام ١٠٩٧م، فأسسوا فيها أولى إماراتهم الصليبية الأربع: إمارة الرها، ثم إمارة أنطاكية، ومملكة بيت المقدس، وإمارة طرابلس. وكان الحريري معاصراً لتلك الهجمات الدموية. فهؤلاء الفرنجة الصليبيون هم "العلوج" الذين "زحزحوا" أبا زيد من بلدته الجميلة سروج، وهَجَرُوهُ مِنْهَا قسراً، مثله مثل الآلاف من المسلمين الذين تعرضوا للمذابح والتهجير على أيديهم. يقول الحريري في المقامة الصورية على لسان أبي زيد السروجي:



مَسَقَطُ الرَّأْسِ سَرُوجٌ وبها كُنْتُ أَمْوُجٌ
وَرَدُّهَا مِنْ سَلْسَبِيلٍ وصحاريها مُرُوجٌ
حَبْدًا نَفْحَةً رِيًّا ها ومَرَّاهَا الْبَهِيْجُ
وَأَزَاهِيرُ رُبَاهَا حينَ ثَجَابُ الثَّلُوجُ
وَلَمَنْ يَنْزَاحُ عَنْهَا زَفَرَاتٌ وَنَشِيْجُ
مِثْلُ مَا لَاقَيْتُ مُذْ زَحْزَحَنِي عَنْهَا الْعُلُوجُ

فمنطقة الجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات -ومن بلداتها الرها وسروج- كانت منطقة احتكاك حربي بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، ومن ورائها أوروبا المسيحية. ومن الواضح أن الحريري كان واعيا بالمعاناة المزدوجة التي عاشها مسلمو تلك الثغور في أيامه، على أيدي الروم البيزنطيين، وعلى أيدي الفرنجة الصليبيين. ومثله الشَّريشي شارح المقامات، الذي

١- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٠٣/٢.

كتب في تعريفه بسروج: ”وسروج هذه بلد بقرى وعمارات، وهي من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة. والجزيرة انقسمت قسمين: ديار ربيعة وديار مضر، وسروج من كور ديار مضر، وهي ثغرية، إذا كان للمسلمين قوّة يملكونها، وإذا ضعفوا غلبهم الروم عليها، وهي كثيرة الثلج والبرد.“^١

ومما يدل على الوعي السياسي لدى الحريري، وعلى براعته السردية أيضا، أنه ضمّن آخر مقاماته -وهي المقامة البصرية- قصة ركب مسافرين ”حكوا أنهم ألموا بسروج بعد أن فارقتها العلوج، فرأوا أبا زيدها المعروف، قد لبس الصّوف، وأمّ الصّفوف، وصار بها الزّاهد الموصوف.“^٢ وهنا إشارة إلى استعادة مدينة الرها وبلدة سروج من أيدي الصليبيين على يد القائد المجاهد عماد الدين زنكي (٤٧٨-٥٤١هـ / ١٠٨٥-١١٤٦م). وكانت استعادة الرها وسروج عام ١١٤٤م، بعد وفاة

١- انظر: الشّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٠٤/٢.

٢- انظر: الشّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٧١/٣.



الحريري باثني وعشرين عاما . ويبدو أن استعادتهما كانت أمنية في قلبه فحوّلها إلى حقيقة أدبية . وهكذا ختم الحريري مقاماته ختاماً سعيداً، حيث أعلن توبة أبي زيد من فتكاته وتهتكاته، وطرّد "العلوّح" الصليبيين من سروج في آخر مقامة له، رغم أنه مات قبل تحريرها بأعوام عديدة.

ولا تزال بلدة سروج تتمتع ببقايا من طبيعتها الخلابة التي وصفها الحريري في شعره، وهي إلى ذلك مشهورة اليوم بولع أهلها بتربية الخيول العربية الأصيلة، وتقع على الحدود بين تركيا وسوريا، ضمن محافظة "شانلي أورفة" التركية. وأورفة هي المكافئ التركي للاسم العربي الرها . وقد زرتُ بلدة سروج بجنوب شرق تركيا يوم ٠١ يونيو ٢٠٢١، وأنا أكتب قصة "أيامي مع الشعر" هذه، وقرأتُ فيها بعض الأشعار التي نظمها الحريري على لسان أبي زيد السروجي، وذلك إكراماً لذكرى الوالد

الكریم - رحمه الله - الذي درّسني مقامات الحريري في أيام الصبا،
فكانت تلك إحدى أفضاله عليّ، في بناء رصيدي اللغوي،
وتنمية حاستي الأدبية، وتعميق إدراكي لوحدة الفضاء الحضاري
الإسلامي، وتلمّس جوانب من آلامه وآماله.

ابن الرومي ودموع أبيه

لقد خلّفت الصحبة الأدبية مع والدي ذكرى عطرة وأثراً باقياً،
ولم تقتصر صحبتنا على مدارس مقامات الحريري، بل كان الوالد
يمتحنني وإخوتي وأخواتي في الإعراب ونحن صبيان صغار،
فيطلب منا إعراب أبيات من الشعر، للوقوف على مستوى
مهارتنا النحوية. وكنا نفرح إذا أصبنا الجواب في الإعراب،
ونحزن إذا أخطأنا في تلك الجلسات العائلية الأدبية. ولا تزال
تعلّق في ذهني اليوم بقايا من تلك الأخطاء. ومن ذلك أن الوالد
رحمه الله سألنا في إحدى الليالي المطيرة المظلمة، ونحن متحلّقون



تَحَسَّى الشاي الأخضر، أن نُعرب قول الشاعر:

وليلٍ في جوانبه فضولٌ من الإظلام أطلّسَ غيَّهَاني
كأنَّ نجومه دمعٌ حَيِسٌ ترَقَّرَقَ بين أجفان الغواني

فلم يستطع أيُّ منا أن يعرب كلمة "أطلّسَ" لعجزنا يومذاك عن فهم معناها، وضعف إلمامنا بقواعد النحو ذات الصلة بالاسم الذي لا ينصرف.

ولا أستطيع أن أنهي الحديث عن صحبتي الأدبية مع الوالد، قبل ذكر بعض النوادر الأدبية، المضحكة والمبكية، التي عشتها معه، ومنها:

أولاً: كنت أقرأ بين يديه أحد كتب الأدب -لا أذكر عنوانه الآن- وأنا في السادسة من دراستي الابتدائية. ومررتُ على

١ - أورد البيتين جعفر بن أحمد السراج القارئ في كتابه مصارع العشاق (بيروت: دار صادر)، ٨٧/١، دون عزوهما إلى شاعر بعينه.

بضع قصائد، وهو يتابع ويصحح ويشرح، ثم بدأت أقرأ قصيدة ابن الرومي التي يرثي بها ولده الأوسط:

بكاؤكما يشفني وإن كان لا يُجدي	فجوداً فقد أودى نظيركما عندي
ألا قاتل الله المنايا ورُميها	من القوم حبات القلوب على عمد
توحى حمام الموت أوسط صبيتي	فله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته	وانست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنّي فأضحى مزاره	بعيداً على قرب قريباً على بُعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها	وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه	فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد

فلما قرأت هذا المقطع الأول من القصيدة، أوقفني الوالد وقال باللهجة الحسانية المورتانية: «كافيك يا وليدي» ومعناها: «حسبك يا بني»! فرفعت وجهي عن الكتاب ونظرت إليه،



فإذا هو مُشِيخٌ بوجهه عني، وعيناه تذرْفان، وكأنما يحاول إخفاء دموعه عني . ولم يستوعب عقلي الصغير سبب بكائه، فخرجتُ، وأعدتُ قراءة القصيدة المرة تلو المرة، وأنا مثقل القلب بالأحزان . ثم أدركتُ السبب في النهاية، فقد تذكرتُ أنني أنا الأوسطُ -بالمعنى الحُرْفِي للكلمة- بين صِبيته التسعة الأشقاء، حيث يكبرني أخوان وأختان، ويصغرنني أخوان وأختان، وتبين لي أن الوالد -رحمه الله- تهاهى شعوريا في تلك اللحظة مع حزن الشاعر ابن الرومي الذي يبكي أوسط صبيته بكاءً مُرّاً في تلك القصيدة، فلم يتمالك نفسه من البكاء، ولم يحتمل إكمال القراءة .

ثانياً: بعثتُ إلى الوالد مع خالتي وأنا طالب أعد الشهادة الثانوية رسالة مكتوبة، أطلب منه أن يزوجني فتاة من معارفنا، فعادت إليّ الخالة ضاحكة، وسلّمتني جوابه مكتوباً على ظهر رسالتي، وهو قول الشاعر:

وكتت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي ما كلُّه أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرٌ
فياك والأمر الذي إن توسَّعتُ موارده ضاقت عليك المصادرُ^١

وكان ذلك درساً بليغاً في الدعوة إلى الاستغفار، وعدم التسرع في الزواج لمن لم يكن قادراً على تحمُّل تبعاته ومسؤولياته.

ثالثاً: هربتُ مرةً من المدرسة الأهلية "الحظرة" التي كت أحفظ فيها القرآن الكريم، وعمرى نحو الثالثة عشرة، بعد أن سُمْتُ الغربية الممضَّة، والدراسة الشاقة، والحياة الصارمة، بعيداً عن أهلي، فقررتُ التخلي عن الدراسة، وسافرتُ من قرية الشيخ المدرّس إلى قريتنا، والمسافة بينهما نحو عشرين كيلومتراً، وكتت معتاداً أن أسافرهما وحدي راجلاً، على حادثة سني

١ - تواتر ذكر البيتين الأولين في مصادر اللغة والأدب دون نسبة إلى قائل بعينه، أما البيت الثالث فقد نسبته المستعصمي لطفي الغنوي. انظر: محمد بن أيدير المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصيد (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٥)، ١٩٢/١٠.



يومها، بفضل التربية الريفية المخشوشنة. وحينما وصلت قريتنا، فوجئت بوجود الوالد في القرية، والعادة أنه في تجارته بالمدينة، فسألني عن سبب قدومي غير المتوقع، فأجبتُه بأنني قررت التخلي عن الدراسة. فغضب ومنعني من الجلوس والراحة، وأخذني فوراً في رحلة العودة إلى شبيخي. وفي الطريق مررنا بقوم، فعرفوا الوالد، وأصروا على استضافتنا عندهم للراحة. ثم أصروا على أن نركب أحد جمالهم إلى وجهتنا. فأرْدفني الوالد خلفه على الجمل، واستأنفنا رحلتنا، ثم بدأ يترنم بقصيدة المتنبي التي مطلعها:

مَلُومُكُمْ مَّا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ وَوَقَّعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ

فلما بلغ قول المتنبي:

وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَقَصِّ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ .

توقف طويلاً وهو يردد على مسامعي هذا البيت، ثم بدأ
يشرحه لي، ويبين لي أن من العيب أن أتخلى عن الدراسة قبل
إكمالها. ولم تنفع نصيحة الوالد، ولا حكمة المتنبّي، فقد هربتُ
في اليوم التالي، والوالد لا يزال في قرية الشيخ. وحين أدرك الوالد
هربي، ذهب يطاردني هو والشيخ، خوفاً عليّ من أن يقتلني
العطش في الطريق، بسبب رياح السّموم في ذلك اليوم القاتظ،
وأمسكاني في منتصف الطريق إلى قريتنا، فودّع الوالد الشيخ،
واصطحبني إلى قريتنا، بعد أن أدرك أن عنادي لا حدود له.
ثم عاهد الله تعالى أمام الأسرة أن لا يرغمني على أمر لا أرضاه
بعد ذلك اليوم، وقد وفى بعهده حتى رحل عن الدنيا. وأكفني
بهذه الأمثلة من ذكرياتي مع الوالد لارتباطها بالشعر.



مع الرومانسيين العرب

لقد شكلتُ صحبتي الأدبية مع الوالد في تلك الحقبة التكوينية الأولى من حياتي أساساً صلباً أدين له برصيدي اللغوي، وشغفي بالشعر العربي. ولم تكن مقامات الحريري هي الرافد الوحيد لرصيدي اللغوي والأدبي، فقد حفظت آلاف الأبيات من الشعر العربي، القديم والحديث. ولم أكن أكلف نفسي حفظ الشعر، ونادراً ما تكلفتُ في حفظ قصيدة أو أبيات شعرية، إذ كنت أشرّب الشعر تشرّباً دون جهد يُذكر، وساعدني على ذلك ما وهبني الله تعالى في شبابي من سهولة الحفظ وقوة الذاكرة، فكانت القصائد والأبيات التي تعجبني وتطربني تعلق بذاكرتي تلقائياً، أما ما لا يعجبني من الشعر فقلماً أحفظه، وإذا حفظته فسرعان ما أنساه أو أتأساه.

وقد أتيت لي بعد المرحلة التكوينية الأولى أن أطلع



على الآداب العربية المعاصرة، وانفتحت لي نوافذ غير متوقعة على بعض الآداب العالمية. فقد شغفت خلال إعدادي لشهادة الثانوية بأعمال الشعراء الرومانسيين العرب المعاصرين، وخصوصا شعراء المهجر الشاميين، وأتيح لي الاطلاع على عدد وافر من أعمالهم، فساعدتني على صقل لغتي البدوية الكلاسيكية، والاقتراب أكثر من لغة الشعر العربي الحديث. كما اطلعت في هذه الفترة على عدد من أعمال الشاعر العراقي بدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤) ووجدت لديه قدرة على تفجير اللغة وتوليد المعاني لم أجد مثله لدى غيره من رواد الشعر العربي الحديث.

لكن يمكن القول إن ديوان أغاني الحياة للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤) كان من الروافد الأساسية التي شكلت شخصيتي الأدبية في تلك الأيام، وقلقتني من الأدب



القديم إلى الأدب المعاصر. فقد وُلعت بهذا الديوان أيما ولع، وكدت أحفظه كله، لما فيه من لغة مشرقة، وأخيلة بديعة. كما شُغفت في تلك الأيام بشعر إيلياء أبي ماضي (١٨٩٠-١٩٥٧) الذي لا أعتبره مجرد شاعر، بل هو فيلسوف حكيم، يزرع التفاؤل في النفوس، ويبعث البهجة في القلوب. وإذا كانت محاولات الشعرية الأولى خشنة العبارة، تقليدية الصور، بدوية المجازات، فإني سرعان ما تحررتُ من تلك القيود بفضل هذين الشاعرين وأضرابهما، من أمثال ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) وإبراهيم ناجي (١٨٩٨-١٩٥٣)، وبفضل نقاد من أمثال عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) وسيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦). وقد اطلعت في هذه المرحلة على العديد من كتب شوقي ضيف (١٩١٠-٢٠٠٥)، خصوصا سلسلته الطويلة تاريخ الأدب العربي. وهو وإن كان ذا منزع كلاسيكي، فإنه يضع الأدب العربي في سياق الزمان، ويعين على فهم تطوره التاريخي.

لكن كتابي سيد قطب: النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، وكتب وشخصيات، كان لهما أعمق الأثر في شحذ حاسّي النقدية، وتحرّري من قوالب الأدب القديم التي نشأت عليها. ويؤسفني حقاً أن هذين الكتابين الجليلين لم ينالا حظهما من الاعتراف والتقدير، بعد أن غطت عليهما شهرة كاتبهما في الفكر الإسلامي، واستشهاده في سبيل الدعوة الإسلامية. ولو أن شخصية سيد قطب الأدبية نالت شيئاً من الإنصاف لرُفع إلى مصاف عظماء الأدباء والنقاد في تاريخ الأدب العربي.

وأذكر أيضاً أنني اطلعت في هذه الفترة على ترجمات لأعمال الشاعر الهندي الكبير رابندرانات طاغور (١٨٦١-١٩٤١)، وأنني شغفت بروحه الشعرية الرشيقة، وحكمته الفلسفية العميقة. والحق أنني لا أستطيع أن أتذكر كل من قرأت لهم من الأدباء في حقبة المراهقة وبواكير الشباب، نظراً لوفرة ما قرأته. فقد كنت ألهم كل ما يقع تحت يدي من أعمال أدبية، عربية أو مترجمة.



في صحبة "بوشكين"

وفي المرحلة الجامعية انفتحت أمامي نافذة غير متوقعة على الأدب العالمي، وهي ترجمات الأدب الروسي إلى اللغة العربية. فحينما كنت أدرس اللغة الروسية -في قسم الترجمة بجامعة انواكشوط- ترددتُ كثيرا على مكتبة المركز الثقافي الروسي في العاصمة الموريتانية، فكتشفتُ روائع الأدب الروسي، وشغفت بها لعدة أعوام، وبدأت أقتني كتبه وألثمها التهاما. ولم يسعفني مستوى لغتي الروسية البسيط بقراءة الأدب الروسي في لغته الأصلية، وإنما كنت أقرأه في ترجماته العربية، وأحيانا نادرة في ترجماته الفرنسية.

فمن الأدباء الروس العظام الذين قرأت عددا من أعمالهم في التسعينات: أبو الأدب الروسي بدون منازع الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧)، وفيودور دوستوفسكي (١٨٢١-١٨٨١)،

وليو تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠)، وإيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) وأنطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤)، ومكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦)، وإيفان بونين (١٨٧٠-١٩٥٣). ولا أزال أتذكر من الأعمال الأدبية الروسية العظيمة التي قرأتها آنذاك: روايتا بوشكين "دوبروفسكي" و"يفغيني أونغين"، وقصة "الليالي البيض" لدوستوفسكي، وروايته الفلسفية الطويلة "الإخوة كارامازوف"، ورواية "النفوس الميتة" لغوركي، ومجموعة أعمال تشيخوف، خصوصا قصصه المعنونة "السيدة ذات الكلب" التي أهدانيها صديقي وابن عمي، الإعلامي الأديب محمد المختار بن الخليل، المدير الحالي لمركز الجزيرة للدراسات في الدوحة، بعد ما رآه من شغفي بالأدب الروسي أيام دراستي الجامعية.

وكنت أحرص على اقتناء سلسلة "أعلام الأدب الروسي" الصادرة عن دار "رادوغا" في موسكو، وهي سلسلة



بديعة حقاً، لكن أثّرين أدبيين روسيين من تلك السلسلة خلفاً في نفسي أثراً عميقاً، وحبّاً إلى قلبي مطالعة الأدب الروسي، وهما رواية إيفان تورغينيف الآباء والبنون، ومجموعة قصص إيفان بونين الدروب الظليلة. وربما يعود ذلك إلى العمق الفلسفي والديني في رواية الآباء والبنون، وتصويرها البديع لصراع الأجيال وتزاحم القيم في الثقافة الروسية، ثم الترجمة العربية البديعة التي صاغ بها الأديب العراقي عبد الله حبه مجموعة قصص الدروب الظليلة.

والحق أنني لم أجد بين مترجمي الأدب الروسي إلى اللغة العربية من هو أبلغ لساناً وأعذبُ بياناً من الأستاذ عبد الله حبه، وكنت أشعر بأنه مظلوم حين أرى اسمه مكتوباً بخط رفيع جداً في إحدى الصفحات الداخلية لكتاب الدروب الظليلة. وكم كانت فرحتي عظيمة حين التقيتُ الأستاذ عبد الله حبه

في الدوحة بعد نحو ثلاثة عقود من قراءتي تلك الترجمة، حيث حصل باستحقاق على جائزة حمد بن خليفة الدولية في الترجمة، وقد سعدت كثيراً حين سمعتُ بالخبر، إذ كيف يجوز أن يبقى مثله دون اعتراف وتقدير في أمة تحترم ذاتها؟!

لقد شغفتُ بالأدب الروسي وتذوقته، ولم يكن حالي كذلك مع الآداب الغربية، فليت شعري ما هو السر في ذلك؟ سألتُ هذا السؤال في لقائي العابر مع الأستاذ المترجم عبد الله حبه بالدوحة عام ٢٠١٩، فكان جوابه أن الأدب الروسي أقرب إلى روحنا المشرقية من الأدب الغربي. ولستُ أملك من الخبرة في الأدب المقارن ما يسمح لي بإصدار حكم أطمئن إليه في هذا المضمار، على نحو ما فعل الأستاذ حبة وهو الضليع بالآداب العالمية، رغم إدراكي أن الأدب الفرنسي في حقبة الرومانسية خالطه نفسٌ مشرقي أيضاً، وظهر فيه تفهمٌ للثقافة الإسلامية



وتعلّقُ بها، على نحو ما نجد مثلاً في قصيدة "العام التاسع الهجري" L'an neuf de l'hégire للشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هيغو.

ومع ذلك فقد لاحظتُ خلال قراءاتي في الأدب الروسي ما يدل على الروح المشرقية المنبثّة في الأدب الروسي، على نحو يزكي ما ذكره الأستاذ عبد الله حبة. فقد وجدتُ أن عظماء الأدب الروسي تأثروا بالثقافة الإسلامية تأثراً عميقاً، ومنهم بوشكين، وتولستوي، ودوستوفسكي. ويكفي مثلاً على ذلك تلك القصائد التسع التي كتبها أبو الأدب الروسي ألكسندر بوشكين بعنوان: "قبسات من القرآن"، وهي منشورة ضمن مجموعته الشعرية القصائد الشرقية. وحتى إيفان بونين -وهو الأديب الروسي المفضل لديّ- فوجئتُ بعمق تأثره بالثقافة الإسلامية، وإفراده قصائد من شعره لموضوعات إسلامية.

وبقي أن أقول إنني لم أنجذب للأدب الروسي بعد الشيوعية،
بمثل انجذابي إليه في حقبة السابقة عليها . وربما أستثني من
ذلك شذراتٍ من شعر كونستانتين سيمونوف (١٩١٥-١٩٧٩)
سحرني روحها الملحمية النابضة بمعاني الشجاعة والفداء .
ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بمقاطع من قصيدته الرائعة ”انتظرنني“،
وقد كتبها سيمونوف وهو على خط النار، دفاعاً عن وطنه في
الحرب العالمية الثانية، فتحولتُ نشيداً ملحمياً على كل لسان في
الجيش السوفييتي، حتى إنها وُجدتُ في جيوب الجنود الروس
القتلى على الجبهات، كما يقال . وقد حفظتُ مقاطع من تلك
القصيدة باللغة الروسية أيام دراستي بقسم الترجمة، ولم أعدُ
أتذكر من النزر اليسير الذي تعلمته من اللغة الروسية سوى تلك
المقاطع الجميلة، وبضع مفردات وجمل أخرى .



”أزهار الشعر“ في تكساس

ومن العجب أنني لم أذوق الأدب الفرنسي والأميركي، رغم تمكّني من قراءة كل منهما في لغته الأصلية، وإطلاعي على جوانب من الثقافة الفرنسية، ثم دراستي بالولايات المتحدة ومُقامي فيها عقداً من الزمان. وقد كانت لي مطالعات محدودة في الشعر الرومانسي الفرنسي، خصوصاً شاتوبريان (١٧٦٨-١٨٤٨) وفكتور هيغو (١٨٠٢-١٨٨٥)، ولا أزال أحفظ شذرات من ديوان هيغو أوراق الخريف Les feuilles d'automne. كما أنني تناولتُ مارك توين (١٨٣٥-١٩١٠) -الذي اشتهر بلقب أبي الأدب الأميركي- في بعض ما كتبه عن صورة المسلمين في الثقافة الأميركية. لكنني لم أهتمّ بالأدب الفرنسي أو الأميركي الاهتمام الذي يستحقّاه. والطريف أنني حينما وصلتُ أميركا للدراسة مطلع العام ١٩٩٩ كنت أحمل في حقيبتي ترجمة عربية لرواية

الإخوة كارامازوف للأديب الروسي ديستوفسكي، وهو ما يدل على أن الأدب الروسي تمكن من قلبي على فراغ، فلم يترك فيه مساحة للأدب الأميركي. وقد يكون سبب هذا الصدود أن هجرتي إلى الولايات المتحدة تصادفت مع تصاعد اهتمامي بالفكر والسياسة، وذبول اهتمامي بالأدب بشكل عام.

وعلى ذكر الأدب الأميركي سأحكي قصتين من الطرائف الأدبية التي عشتها خلال مقامي في الولايات المتحدة. أولاهما أن صحفياً أميركياً زارني، وأخبرني أنه يُعدُّ كتاباً يتناول مائة عام من التطور الثقافي والبشري في مدينة "لباك" التي كنت أقيم بها بولاية تكساس الأميركية. وطلب مني أن أكون ضمن الأشخاص الذين يضمهم كتابه، مثلاً على ظهور أطراف ثقافية وبشرية عربية ومسلمة في المدينة لم تكن معهودة في تاريخها. وفي سياق حديثنا عن اندماج العرب والمسلمين في نسيج تلك المدينة الأميركية، سألني الكاتب الأميركي عن شعوري الشخصي



تجاه البيئة الاجتماعية والثقافية في الولايات المتحدة، فأجبهه بأن مشاعري في هذا المضمار متضاربة، وأن حالي يشبه حال شاعر عربي قديم، هو أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ/ ٩١٥-٩٦٥م)، الذي زار موطنه من بلاد فارس، فأعجبه جمالها، لكن جمال البلاد لم يكفكف من إحساسه بالغربة الإنسانية والثقافية، وكتب في ذلك شعراً. فطلب مني الصحفي الأميركي قراءة ذلك الشعر بالعربية، فقرأت عليه أول بيتين من قصيدة المتنبي:

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْباً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنِ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ^١

فألح عليّ أن أكتب له البيتين بالعربية بخط يدي، وأن أترجمهما له إلى الإنكليزية، وصوّر الورقة المخطوطة، وصورني في ثوب أبيض من النوع الشائع لدى أهل الجزيرة العربية، ثم وعد بتضمين

١- انظر القصيدة في ديوان المتنبي، ٥٤١-٥٤٥.

صورتني وصورة البيتين بخطي العربي في الكتاب. ولا أدري هل فعل ذلك أم لا، فقد نسيْتُ الكاتب والكتاب بعد ذلك، لكن أبهجني يومها أن تظهر آثار من الثقافة العربية في تاريخ مدينة أميركية نائية، رغم إحساسي بالحرَج من رداءة خطي الذي ربما يكون ظهر في ذلك الكتاب! وقد كنت -ولا أزال- أعزِّي نفسي في رداءة خطي، بأنه ليس أسوأ حالا من خط الشاعر العظيم أبي القاسم الشابي، والمفكر العظيم مالك بن نبي (١٩٠٥- ١٩٧٣)، وكلاهما من أحب الناس إلى قلبي، ومن أعظم الأقلام تأثيرا في أفكاري ومشاعري.

أما الطرفة الثانية ففيها شيء من الغرابة، وذلك أن ضباطا من مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي FBI زاروني أكثر من مرة، وطلبوا مني العمل مع وكالتهم مترجماً، وهي طريقة مهذّبة في تجنيد جواسيس لهم على الجالية الإسلامية الأميركية. ولم أستغرب الأمر أبداً، فقد كنت على علم بسعي هذه الوكالة



الحديث إلى تجنيد العديد من المسلمين المقيمين بالولايات المتحدة بعد هجمات ١١ سبتمبر، خصوصاً ممن يعملون في مؤسسات إسلامية، كما هو حالي يومها. لكن ما استغرَبته واستطَرَفته هو أن ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي جلبوا معهم هدية لي في إحدى زياراتهم، وكانت الهدية علبة من القهوة الأثيوبية ذات الجودة العالية، وديوان أزهار الشر Les Fleurs du Mal للشاعر الفرنسي شارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) باللغة الفرنسية. وكنت عرفتُ بودلير وديوانه أزهار الشر -الذي هو أشهر آثاره الأدبية- من خلال أستاذ لي بجامعة انواكشوط، درَّسنا مادة في الأدب الفرنسي قبل ذلك بسنين، وكان مولعاً بتشريح أشعار بودلير، وفكِّ طلاسمها ومجازاتها الرمزية.

لكن ما الذي يفعله ديوان أزهار الشر في لغته الأصلية بأيدي ضباط أمن بمدينة أميركية نائية لا يكاد يوجد فيها من ينطق باللسان الفرنسي؟ وما الذي دفعهم إلى إهدائي هذا

الديوان الفرنسي وتلك القهوة الأثيوبية تحديداً؟ لست أدري، لكن يمكنني التخمين أنهم أدركوا ولعي بالقهوة والشعر، فقرروا طرق أبواب القلب عبر هاتين الهديتين الرمزيّتين. وفي كل الأحوال، فقد اعتذرتُ لهم وتملصتُ منهم بأدب، لكن يبدو أن تقديرهم قادهم إلى الاعتقاد بأنني أبحث عن عرض أفضل! فجاءوني من واشنطن بضيف من وكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية DIA، وعرض عليّ العمل مع وكالته "خبراً" متخصصاً في الحركات الإسلامية، وهي صيغة أخرى مهدّبة لتجنيد الكتاب جواسيس، بعد شحذ نرجسيتهم باللقاب، مثل لقب "الخبر"، ومنحهم المال الوافر والجنسية الأميركية.

وبعد طول إلحاح وإلحاف، ومحاولات إغراء وإغواء، كشفتُ للضيف والمضيف عن شخصيتي البدوية، وبينتُ لهما أنني تربيتُ على ظهور الإبل في الريف الموريتاني الفقير، وأني أستطيع العيش بدون "البيتزا" الأميركية. فانصرفوا بلطفٍ،



والحرجُ بادٍ على وجوههم من كلماتي الصريحة، التي لم أحاول تغليفها بغلاف دبلوماسي. وانتهى الأمر برفض منحي الإقامة الدائمة بالولايات المتحدة، والتحفظ على تجديد إقامة عملي، فاضطرتُّ لترك الولايات المتحدة في سبتمبر من العام ٢٠٠٨، وقد عوّضني الله خيراً منها بالإقامة في دولة قطر بتقاليدها العربية المضيافة، وبجنسية تركيا الدولة التي جمعت محاسن الشرق والغرب، ومن ترك شيئاً لله عوضه خيراً منه والله الحمد أولاً وآخراً.

وقبل أن أختم الحديث عن "أزهار الشر"، أشير إلى لقائي مع أحد المثقفين العرب الأميركيين في أحد المؤتمرات، أثناء الفترة التي كان فيها مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية يحاولان إغوائي وجذبي إلى صفهم. وحينما حدّثته عن مساعيهم وزياراتهم المتواترة لي في تكساس لم يردّ، وتجاهل الموضوع تماماً، مما يدل على أنه أكثر حصافة سياسية



مني . وبعد ذلك جاءني بورقة قد طُبعتُ عليها مقاطع من
قصيدة الشاعر المصري أمل دنقل الشهيرة: "لا تُصالحُ":

لا تُصالحُ

ولو منحوك الذهبُ

أترى حين أفقاً عينيك . .

ثم أثبتُ جوهرتين مكانهما . .

هل ترى؟

هي أشياء لا تُشترى . . . ١

ثم قال: "هذه هدية مني إليك." ففهمتُ الرسالة، وشكرته من
قلبي دون لساني، ولم أعدُ إلى الحديث عن الموضوع معه، تجنباً

١ - انظر نص القصيدة كاملاً في: أمل دنقل، الأعمال الشعرية الكاملة (القاهرة: مكتبة
مدبولي، ١٩٨٩)، ٣٣٤-٣٣٦.



لإحراجِه، ومراعاةً لمُحاذرتِه المشروعة. ولا أزال أحتفظ بتلك الورقة منذ نحو خمسة عشر عاماً، عرفاناً بالجميل لذلك المثقف الناصح، رغم أنه لم يفعل أكثر من تأكيد المؤكّد، فقراري بعدم "التصالح" مع القوم كان قد صدر دون تردد أو لجلجة.

ويبدو لي أن ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية قد أخطأوا التقدير مرتين: مرة حين حسبوا أنهم سيكسبونني جاسوساً لهم على المسلمين مقابل عَرْض زائل وزادٍ زهيدٍ، والثانية حين ظنوا أنني أحب الأدب الفرنسي الذي لم يلامس قلبي قطُّ، وإن كنتُ لا أنكر قيمته بين الآداب العالمية. فكانت أزهار الشر التي جاء بها أولئك القوم في غير محلها، فلم تتفق على النحو الذي أمْلوه. . والحمد لله على رعايته وتسديده.

هنيئة في مسجد قرطبة

وكان من آخر الروافد التي رفدت ذاتي الأدبية،
وَأثَّرت فيها تأثيراً عميقاً، شاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال
(١٨٧٧-١٩٣٨). فقد عرفتُ إقبالاً معرفة إجمالية في وقت
مبكر عبر مطالعات متناثرة، منها كتاب إقبال: الشاعر الثائر
للطبيب الأديب المصري نجيب الكيلاني (١٩٣١-١٩٩٥)،
وكتاب روائع إقبال للعلامة الهندي أبي الحسن الندوي (١٩١٤-
١٩٩٩). لكن الاهتمام العميق بشعر إقبال لم يبدأ عندي إلا
بعد حصولي على ترجمة لديوانيه جناح جبريل والأسرار والرموز
في نهاية التسعينات، فاندفعتُ بعد ذلك إلى قراءة كل دواوينه
التسعة في ترجماتها العربية، وأحياناً في ترجماتها الإنكليزية
والفرنسية، وحفظت مئات الأبيات من الترجمة العربية لشعره،
خصوصاً من ديوان جناح جبريل الذي يبدو لي أكثر أعمال إقبال



تعبيراً عن روحه الشعرية. وقد لاحظت أن أفضل من صاغ شعر إقبال باللغة العربية هو الشيخ المصري الأزهري الضير الصاوي شعلان (١٩٠٢-١٩٨٢)، والشاعر السوري المعاصر زهير ظاظا.

وكتبت لسنين أصطحب معي ديوان جناح جبريل كلما ركبت الطائرة، وأحرص على قراءته في رحلاتي الجوية، لأسباب غامضة لا أملك لها شرحاً، سوى أن عبارة "جناح جبريل" تملأ نفسي بمعاني العلوّ والسموّ. ولا أنسى رحلة الطائرة بين صنعاء والقاهرة، وأنا أقرأ هذا الديوان، ثم أنظر من النافذة كلما مررتُ بمجاز شعري ذي صلة بسيناء أو جبل الطور، وأتمنى لو أراهما رأي العين. فمع محمد إقبال وجدتُ ذلك التركيب العظيم بين الروح الإسلامية والخيال الشعري، فكان تأثيره واضحاً في قصائدي الحجازية السينائية. كما وجدتُ في شعر إقبال خلال

مقامي المديد في الولايات المتحدة درعا حصينا من تحلل الحياة
الاجتماعية الغربية، وتلاشي الحدود بين الإنسان والحيوان في
بعض جوانبها. فليس كشعر إقبال ملهمًا للعزة الإيمانية، ودرعًا
للهوية الإسلامية.

ومن قصائد إقبال البديعة التي لي معها قصة، قصيدة
”مسجد قرطبة“، وهي توصف بأنها أبلغ أثر أدبي مكتوب
باللغة الأوردية، كما أن صياغتها العربية من أبدع الصياغات
لشعر إقبال. ومطلع ترجمتها العربية هو:

قَصْرُ التَّارِيخِ وَمَسْجِدُهُ مَا أَرُوعَ مَا صَنَعْتُ يَدُهُ^١

وقد أحسن الأديب السوري زهير ظاظا في صياغتها على نط
قصيدة الأديب علي بن عبد الغني القيرواني الضرير (ت ٤٨٨هـ/
١٠٩٥م) التي مطلعها:

١- راجع القصيدة في ديوان إقبال، جناح جبريل، ٤٧٨/١-٤٨٠.



يا ليل الصب متى غدّه؟ أقيام الساعة موعده

أما قصتي مع قصيدة "مسجد قرطبة" فحاصلها أنني شاركتُ عام ٢٠١٥ في مؤتمر بمدينة غرناطة الأندلسية، وهي تبعد عن قرطبة أكثر من مائتي كيلومتر، فقلت لأحد زملائي بالمؤتمر إنني لا أستطيع العودة من تلك الرحلة قبل أن أقرأ قصيدة إقبال "مسجد قرطبة" داخل مسجد قرطبة. وهو مسجد عظيم كان قلب مدينة قرطبة يوم كانت عاصمة الدولة الإسلامية في الأندلس، ثم حوله الصليبيون الأسبان كنيسة، بعد سقوط قرطبة بأيديهم عام ٦٣٣ هـ ١٢٣٦م ضمن الهجمة الصليبية الشاملة على قلب العالم الإسلامي وأطرافه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. بيد أنها كنيسة من نوع خاص: فهي مرصعة الجدران بآيات القرآن الكريم حتى اليوم، وفي خاصرتها الشرقية

١ - راجع القصيدة في تقديم كتاب إبراهيم بن علي الحُصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب (بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ)، ١٠-٩/١.

محراب مسجد، بل ولا تزال تُسمَّى باللغة الأسبانية "المسجد -
الكنيسة" ! Mezquita-Catedral de Córdoba.

وقد اعترض منظمو المؤتمر على غيابي عن بعض
الجلسات، واستكثر عليَّ بعض زملائي السفر بضع ساعات
من أجل قراءة قصيدة في مسجد قرطبة، لكنني ضربت عرض
الحائط بكل ذلك بعد أن تذكرتُ بيتاً للشاعر الفارسي العظيم
سعدي الشيرازي (٦٠٦-٦٩٤هـ / ١٢٠٩-١٢٩٤م)، الملقب
"بلبل شيراز"، أورده إقبال في جناح جبريل، حيث يقول سعدي
في ذلك البيت:

من الفقر أن تأتي وفاضك فارغٌ وقد طفت في تلك الرياض جميعها
وركبتُ الحافلة ميمماً قرطبة، ودخلتُ المسجد، وقرأتُ قصيدة
إقبال في المسجد، واستطعتُ التملص من شرطي أسباني -أراد



منعي من قراءتها- بالاختباء خلف حشد من السائحين! ولم
أمكث في قرطبة إلا قدرَ ما أقرأ تلك القصيدة في مسجدِها
التاريخي الفخم، ثم قفْتُ راجعا إلى غرناطة في الحافلة، وأنا
أترنم بالأبيات الأخيرة من قصيدة إقبال "مسجد قرطبة":

كنخيل الشام وأعمدها شمختُ في المسجد أعمدهُ
تتألق زُرْقَةٌ قَبَّته وتُقيم الليل وتُقعِدهُ
وتنهدُها في وحدتها كالطُور كَوَاهُ تنهَّدهُ

ثم بأبيات من قصيدة "أسبانيا" التي ودَّعَ بها إقبال مسجد
قرطبة، وهي قوله:

صوتُ المنائر في نسيمِك يرقُدُ وصداهُ في أرواحنا يتردَّدُ
يا توأمَ الحرم الشريف تطوِّفُ بك رُكْعٌ من عاكفين وسُجَّدُ

سيماك من أثر السجود على الثرى طربُ يفوح ونضرةٌ تتجددُ
يا طالما سُفكتُ هناك دماؤنا ظلماً ونحن المُشفقون العودُ
خمدتُ حقيقتنا وزال بريقُنا وبريق قرطبة الشريدُ مخلدُ
ووقفتُ لا نؤمي حمدتُ ولا السرى أتكبّدُ الجرحَ الذي أتكبّدُ

ويا لها من ساعة مباركة تلك التي قضيتها في رحلتي العابرة إلى
مسجد قرطبة، رغم الأسى الدفين الذي بعثه الذكرى في نفسي
على ضياع قرطبة، التي كانت عاصمة الدولة الإسلامية في
الأندلس، وحاضرة الثقافة العربية، و"دار العلوم" بتعبير الشاعر
أبي البقاء الرندي (٦٠١-٦٨٤ هـ / ١٢٠٤-١٢٨٥م) في قصيدته
الشهيرة في رثاء الأندلس:

وأيّن قرطبة دار العلوم؟ فكُم من عالم قد سما فيها له شأن^٢

١ - إقبال، جناح جبريل، ٤٨٥/١.

٢ - انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠-١٩٩٥)، ٣٩٠/٨.



ومن خلال محمد إقبال اكتشفتُ الشاعر الصوفي العظيم جلال الدين الرومي (٦٧٢-٦٠٤هـ / ١٢٧٣-١٢٠٧م) الذي يعتبره إقبال أستاذاً له ومُلهماً، فاطلعتُ على بعض أعماله، ووجدتُ أفضل ترجماته هي الترجمة الإنكليزية البديعة بقلم الشاعر الأميركي كولمان باركس الذي اتخذ من ترجمة شعر الرومي والتعريف به رسالته في الحياة. أما الترجمات العربية للرومي، سواء ما كان منها نثراً مثل ترجمة سيد دسوقي شتاً للمثنوي، أو شعراً مثل ترجمة محمد جمال الهاشمي للكتاب ذاته، فلم أجد فيها نفساً أدبياً يكافئ نفس الرومي وخياله الخصب.

ولا يمكن أن أنسى أنني أدين للرومي بعنوان ديواني الصغير هذا، وبإحدى أهم قصائده، وهي قصيدة "أغاني الحجاز". فقد كنت مرة أقرأ قصيدة الرومي "حديث الليل" فصادقتني هذه العبارة الإنكليزية من ترجمة كولمان باركس للقصيدة: "تلك

روحي الجريحة“ ¹ *That is my wounded soul* فأوحت لي العبارة على البديهة بقصيدة ”أغاني الحجاز“ التي بدأتها بعبارة ”جراح الروح“. . . وهي العبارة ذاتها التي اتخذتها عنوانا للديوان، وكنتُ أبحث له عن عنوان مناسب لعدة أعوام، وغيّرتُ العنوان أكثر من مرة، من ”الفجر الصادق“ إلى ”دموع الندى“ إلى ”أغاني الحجاز“. . . لكنني تخلّيتُ عن كل تلك المحاولات بعد قراءة كلمات الرومي المعبرة، واستقرّ قراري واختياري على عنوان: ”جراح الروح“. وكانت معرفة الرومي مدخلا لي للاهتمام بعظماء الأدب الفارسي، خصوصا سعدي الشيرازي، والفردوسي (٤١٠-٣٢٤هـ / ٩٣٥-١٠٢٠م)، وعمر الخيام (ت ٥١٥هـ / ١١٢١م). وإن لم يكن الخيام غريبا عليّ، نظرا لاطلاعي على ترجمة أحمد رامي لرباعياته قبل ذلك.

1- Rumi, The Essential Rumi, Translated by Coleman Barks (New Jersey: Castle Books, 1987), 77.



مع محمد عاكف أرصوي

وقد اهتمتُ - كما اهتم كثيرون غيري من الشباب الإسلامي في الثمانينيات والتسعينيات - بظاهرة الأدب الإسلامي، وتابعت النقاشات والدراسات النقدية عنها، ومنها كتابات المؤرخ الأديب العراقي عماد الدين خليل، والناقد المغربي محمد إقبال عروي، والطبيب الأديب المصري نجيب الكيلاني، وقد جمع الكيلاني بين التنظير لفكرة الأدب الإسلامي وممارستها في رواياته العديدة، وفي ديواني شعره أغاني الغرباء وعصر الشهداء. كما طالعتُ في تلك الفترة مقالات متناثرة عن الموضوع بمجلة "الأمة"، التي كانت تصدر من قطر آنذاك، بتحرير الأستاذ المفكر عمر عبيد حسنة.

لكني لم أجد من الشعراء المعاصرين من بلغ في تمثُل الروح الإسلامية في شعره، مثل ما بلغ شاعران، هما محمد

إقبال ومحمد عاكف أرصوي (١٢٩٠ - ١٣٥٥ هـ / ١٨٧٣ - ١٩٣٦ م)، وكلاهما لُقِبَ «شاعر الإسلام» باستحقاق^١. وقد تحدثتُ عن إقبال سلفاً، أما محمد عاكف فهو مفكر وشاعر تركي عظيم، اختار البرلمان التركي منذ مائة عام إحدى قصائده لتكون النشيد الوطني للجمهورية التركية الوليدة. وقد حاز أرصوي هذا الشرف من بين سبعمائة شاعر تركي. كما خلد أرصوي معركة «جناق قلعة» التاريخية عام ١٩١٥ في بعض روائعه الشعرية. وهي الملحمة التي أنقذت اسطنبول من سيطرة تحالف عسكري ضخم في الحرب العالمية الأولى، ضمَّ فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية وأستراليا ونيوزيلندا. وتعتبر هذه المعركة -إلى جانب معركة «كوت العمارة» في العراق- آخر الانتصارات العظيمة للدولة العثمانية قبل أفولها.

١- اشتهر محمد إقبال بلقب «شاعر الإسلام»، لكن إبراهيم صبري في ترجمته للظلال الصادرة عام ١٩٣٣ ذكر أن محمد عاكف أرصوي «لُقِبَ بشاعر الإسلام في الأوساط الأدبية» (ص ٨)، مما يعني أن حصوله على هذا اللقب كان قديماً، شأنه شأن إقبال.



ولم أخط بالاطلاع الواسع على شعر محمد عاكف - بكل
أسف - على نحو ما اطلعتُ على شعر محمد إقبال . وذلك
بسبب حواجز اللغة، وزهد العرب المعاصرين في الثقافة التركية،
جراء القطيعة الثقافية بين الأمتين أثناء الحرب العالمية الأولى،
وما صاحب ذلك من هوس قومي متكرر للأرحام الإسلامية
والإنسانية بين الأمتين . . ومع ذلك فقد تتبعْتُ المتاح من شعر
محمد عاكف بالعربية والإنكليزية، واطلعتُ على الجزء السابع
من ديوانه صفحات، في ترجمة عربية قديمة بعنوان الظلال بقلم
الأديب المصري إبراهيم صبري^١. وقد اكتفي صبري بترجمة
ذلك الجزء الأخير من الديوان الذي كتب عاكف جُلَّ قصائده
خلال منفاه في مصر، ولو كان ترجم الديوان كله لكان أسدى
لقراء اللغة العربية خدمة جليلة.

ولا تزال لديَّ أمنية الاطلاع على شعر كل من محمد

١ - محمد عاكف، الظلال، ترجمة إبراهيم صبري (القاهرة: ١٩٣٣ دون ذكر الناشر).



إقبال ومحمد عاكف في لغته الأصلية، وأجد بين الرجلين قرابة عقلية ووجدانية عجيبة، حتى لكأن القارئ لشعر أحدهذين الشاعرين يحس بأنفاس الشاعر الآخر. ويدل ما وصل يدي من شعر محمد عاكف على خيال شعري خصب، وروح إسلامية متوثبة، ومحبة عظيمة للنبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، عبّر عنها بقوله:

”في ليلة من الليالي قبل أربعة عشر قرناً

ظهر من الرمال يتيم كالقمر.

ولكن يا لها من خسارة! لم تشعر به الأبصار

وقد كان الناس ينتظرونه من آلاف السنين.

وقد أنقذ الإنسانية ذلك الصبي البريء بنفخة منه

وهزم قيصر وكسرى بضربة



وقد شمل ظل جناحه كل من يطلب العدل.

إن البشر بأسرهم مدينون لذلك الصبي.

فابعثنا يا إلهي يوم الحشر على هذه العقيدة.^١

ويبقى أن أقول إن شعري القليل سجلٌ لتموجات وجداني
على مدى عقود من الزمان، فلا يستغربن القارئ الكريم إن وجد
فيه كل التناقضات الشعرية التي تموج بها النفس، من البهجة
والتفاؤل بفجر الحياة، إلى الألم والتوجع من واقع الأمة، ومن الحب
الانفعالي المتوتر في لحظة من لحظات العمر، إلى الحب "السعيد
المديد" بتعبير الأديبة الروسية أنا ساكيانتس.^٢ فالشعر مجرد
مرآة للوجدان في حركته الدائبة التي لا تقرأ على قرار. وربما
يتمنى كل الشعراء لو كانت أشعارهم فضاءً زاهياً من السعادة

١- عاكف، الظلال، ٩٤-٩٥.

٢- انظر إيفان بونين، الدروب الظليلة: مجموعة أقاصيص، ترجمة عبد الله حبة (موسكو: دار رادوغا، ١٩٨٧)، ص ١٣ من تقديم أنا ساكيانتس.

الدائمة والمشاعر البهيجة، لكن تموجات الحياة هي التي تقود قلب الشاعر في نهاية المطاف. وقد قال الشاعر محمد عاكف أرسوي: "لو عشتُ في زمن الربيع لشدوتُ شدوُ البلبل."

ولأنَّ الهمَّ الأهمَّ للشاعر والكاتب هو أن تلامس كلماته وجدان الناس، وتحرك شغاف قلوبهم، حتى ولو بعد رحيله عن الدنيا، فإني أجد خير ختام لأيامي مع الشعر أن أدعو بدعاء الشاعر الفيلسوف محمد إقبال في جناح جبريل:

خشوعي	في	عذاباتي	ووشِي	في	طموحاتي
وفكري	وهو	بستان	ونفسي	وهي	مراتي
وقلي	وهو	ميدان	تضجُ	به	عراكاتي
ودروشي	التي	تبدو	نصيبي	من	معاناتي
سألكَ	أن	تُعقَّها	وتمزجها		بآهاتي
وتسقيها		لقافلي	بموكب	جيلنا	الآتي

نصوص الديوان

أغاني الحجاز

تفيض بدمعة ودمٍ	جراح الروح في قلبي
تباريحاً من الألم	فتسقينني عذاباتي
لجيرانٍ بذِي سَلَمٍ	أناجي الركب مشتاقاً
وأعدُّو حافِييَ القدمِ	على رمضائهم أشدُّو
حكايَا الحيِّ والخيمِ	وأحكي من ماثرهم
بقلبٍ للحبيب ظمٍ	أطارد طيفَ أشواقِي
على خدِّيَ بالحرمِ	وأنثر دمعتي الحرَّى
وعينُ الشوق لم تنمِ	ينام الكون من حولي

حفرْتُ لمضجعي بيدي	على السفحين من أحدٍ
فضاق بمجلها جسدي	ورُّوحي للذُّرى حنَّتْ



سقطت ولذّة اللّقيَا على قلبي على كبدي
قريّر العين مبهجًا بعيشٍ ناعمٍ أبدي
وكم في السفح من ظبي وكم في السفح من أسدٍ
فنحن القومُ إن غامت دروبُ مسيرنا لغدٍ
أضأناها يلمع السيّف بين الروح والجسدِ
بكفٍ غير مرتعشٍ وقلبٍ غير مرتعدٍ

وفي البطحاء من بدرٍ بذرنا بذرة الفجرِ
سَقِينَا روحَهَا الظَّمْأَى بفيضِ دمائنا الحُمْرِ
فمدَّ الفجرُ أجنحةً بنُورِ الفتح والنصرِ

تضمّخه الأزاهيرُ
بأنفاس من العطرِ



وتسقيه العصافيرُ

رحيقَ الشدو والنقرِ

دم في الروح يستشري	فنورُ البدر من بدُرٍ
من البحر إلى النهرِ	يحررُ أرضَ أقصانا
إلا ليلة القدرِ	ويُفني الليل والظلماء

(لباك، الولايات المتحدة، 2005)



دُمُوعُ النَّدى

هو الفجر يمزج بين السطور	دموعُ الندى وابتسامَ الزهور
فلا تبتسُّسْ إن أَلَمْتُ بنا	خطوبٌ تُذيب قلوبَ الصخور
تداعتُ علينا فلؤلُ الدُّجَى	وظنَّت من الجهل أن لن نحورُ
بلى إن موكبَ أشواقنا	لآتٍ بكل المُنَى والسُرورِ
سندفنُ الآمنا في الحَشَا	ونكتمُ آهاتنا في الصدورِ
ونعبرُ للنور ملء الخُطَى	ونبذلُ أرواحنا في العبورِ
ففي السَّفح من أُحدٍ مضجَعُ	يشعُّ على كل قلبٍ جَسورُ
فيغمرُ بالنور أرواحنا	لِتشدُّوا بالحن خُضرُ الطيورِ
وريحُ صبا نَجِدنا لم تنزلُ	تُضَمِّخُ أرواحنا بالعطورِ
فتززعُ تحت الضلوع جَوَى	ونيرانُ شوقٍ تكادُ تَفورُ
سنرجعُ للدار مهما تَكُنْ	صروفُ الليالي وكرُّ الدهورِ



سنمسحُ بالكفِّ دمعَ الندى ونغمُرُ أزهارنا بالحبورُ

(لباك، الولايات المتحدة، 2004)





جانب الطور

أيها السَّاعُونَ فِي تِيهِ الْحَالُ

يَتَلَوَّى تَحْتَكُمْ سِرْبُ الْجِمَالِ

وَالْعَيُونَ النَّجْلُ مَلَأَى بِالْحَصَى

وَالشُّعُورُ الْغُبْرُ مَلَأَى بِالرَّمَالِ

قَدْ بَدَأَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ وَمِيزُ

فَإِذَا النُّورُ عَلَى نُورٍ يَفِيضُ

فَانْظُرُوا سِينَاءَ قَامَتْ لِلضُّحَى

وَرَمَتْ ثَوْبَ الدِّيَاجِي فِي الْحُضِيِّضِ



أيها السَّاعُونَ في أرض الخطرِ
في اتِّجَاعٍ للمراعي والمطرِ
أولاً يتعبُكم طولُ السُّرى؟
أولاً يرهقُكم طولُ السفرِ؟

انظروا البدرَ سرىً منه شعاعُ
مستفيضاً من ثَنِيَّاتِ الوداعِ
فإذا الدنيا تنادي مرحباً
وإذا النور على الكل مُشاعُ



وانظروا الصحراء في ثوب بديع

طرزته بالندى أيدي الربيع

واسمعوا العصفور يشدو جذلاً

واسمعوا الراعي يُغني للقطيع

هوذا الفجر من الشرق مُطلٌ

يرمق الكون بطرف مكتحلٌ

أولم يكف عذاباً وكرياً؟

أولم يأن نزول المرتحل؟



أدبر الليل هزلاً شائخاً
بين أسراب ذئابٍ ونباحٍ
وأتى الصبح فيا أهلاً بهِ
طالما اشتقتُ إلى وجه الصباحِ

(أنواكشوط، موريتانيا، 1993)





رفرف الفجر

سيأتي الفجر مُشْحاً بظلماءٍ

يفجّر جلمد الصخرِ ..

ينابيعاً من الماءِ

فينبجسُ الربيعُ هناكَ من أحشاءِ رمضاءِ

لدى أحدٍ وفي بذرٍ

فترتعُ في حدائقٍ منه غنّاءِ

وواحاتٍ من النخلِ

وزيتونٍ وحِثّاءِ

غداً ينبلجُ الصبحُ



غداً يندمل الجرحُ

سينطلق الرعاة مع الربيع غداً

إلى أعماق صحرائي

بأذوادٍ من الإبلِ

وقطعانٍ من الشَّاءِ

فتندفع الأناشيدُ

وترتفع الأغاريدُ

وما أحلى عناقَ الناي والثغرِ

غداً ينبلع الصبحُ





غداً يندمل الجرحُ

فمن يَسْطِيعُ أن يمنع من رفرقة الفجرِ

بأجنحة من النورِ؟

ومن يَسْطِيعُ أن ينهى عن الشدو أو النقرِ

ملايين العصافير؟

ومن يَسْطِيعُ أن يَكْتُم أنفاساً من العطرِ

على شفة الأزاهير؟

ومن يَسْطِيعُ أن يحجب ضوء الشمس والبدرِ؟

غداً ينبلج الصبحُ



غداً يندمل الجرحُ

(أنواكشوط، موريتانيا، 1993)





يوسف وإخوته

نزع الشيطان بين الإخوة

فرماني إختي في الحبّ ..

في أرضٍ عراءٍ

صبغوا ثوبي بألوان الدماء

ثم عادوا في المساء ..

بنحيب وبكاء ..

لم يصدق والدي ..

أنني متُّ .. وما صدقتُ موتي

وتشبّثتُ بأذيال الدلاء



باعني العيرُ ببخسِ الثمنِ

بدراهمٍ زهيدةٍ

ونفاني من حنايا وطني

نحو أصقاع بعيدة..

لم يصدق والدي..

أنني مت..

وما صدقتُ موتي

ثم قطعتُ أحابيلَ البغاءِ





طال عهدي ببلادي

وأبي عيناه من فرط الأسى ..

أضحنا دون اسوداد ..

غير أني سوف أغلو عرش مصر

سوف أجني ثرات ..

من ضفاف النيل والبحر ومن أرض السواد

سوف أبقى مسلماً ما دام صبحٌ ومساءً

(العيون، موريتانيا، 1991)

شَذَى

شذاك بالليل غامرُ
 فينثر العطرَ شعراً
 طاف الفضاءَ رشيقياً
 ولاذ بالقلبِ مِنِّي
 فيا لبهجةً روعي
 قد استقرَّ بقلبي
 ففاض قلبي بحُبِّي
 ماذا أهَمَّك؟ ماذا
 لا تحزني يا فؤادي
 نامي بمرفأ جفني
 ما ثارَ شعبُك إلا
 يجولُ بين الدياجِرُ
 على الرُّبى والمعابرُ
 بين الطيور الكواسِرُ
 يلوذُ بالوكر طائرُ
 لحنٌ نديٌّ مُسافرُ
 جُنيَّةٌ من أزاهرُ
 على ضفافِ المحابرُ
 أهاج منك الخواطرُ؟
 فذاك روعي المغامرُ
 وسافري في التواظرُ
 لكي تعزَّ الحرائرُ



إن لم تنامي قريراً فلا غفْتُ عَيْنُ شاعرٍ

(عينتاب، تركيا، 2014)

قصيدة!

يا زهرةً من سؤسنٍ غَضٍّ وقصيدةً تمشي على الأرضِ
لا تسحقي قلبي بلا ذنبٍ وتُحطمي بعضي على بعضي
ما هكذا أملتُ فيكِ، وما خلتُ الغرام إلى الردى يُفضي
كيف التخلي عن هواكِ؟ وهل يسُلُو فؤادي عنه أو يُغضي؟
تمضي الحياة سحابةً، أمَّا حُبِّي فما هو بالذي يَمْضي
أبدأً يطاردني، فيلحِقُنِي أبداً، ويُضِي فيَّ ما يُضِي
يا زهرتي لا تقتلي أملي وتُقابلي نجوأي بالرفضِ
إن تجبني عني حديثك والسَّحرَ البهيجَ بثغرك الفضي عيشاً بهذا الكوكب الأرضي
وضياء مَبْسَمه.. فما أبغي

(العيون، موريتانيا، 1990)



ظلال

يا دوحةً تفيّأت	روحي ضحىً ظلالها
وروضةً تنعمت	مشاعري خلالها
ووردةً تكحلت	نواظري جمالها
وغيمةً تصبّ في	جواني زلالها
ونجمةً أرقبها	وأبتغي إطلالها
وأخشي هجرانها	وأرتجي وصالها
وأشتهي حديثها	وقيلها وقالها
إذا رأيك أنثت	رُوحِي وغنت حالها
أوحى لها جمالك	الساحرُ ما أوحى لها
فراعها وقّع اللقاء	بغّةً وهالها
وابتسمت لها الحياة	أنبت آمالها



وإن هجرتِ زُلِزِلَتْ من الهوى زلزالها
واشتعلتْ نارُ الجوى فقطّعتْ أوصالها
يا بهجة الدنيا بخاطري ويا أهوالها
رحمى بروح فاق حبها لك احتمالها
فحائلها إن لم تكوني ترحمي يُرثى لها

(العيون، موريتانيا، 1991)



ذكريات

ذكرياتُ "العيونُ" تستقرُّ الفؤادُ
وتُثيرُ الشجونُ رغم كل البعادُ

إن طيفَ الحبيبِ في فؤادي الشَّجي
حاضرٌ لا يغيبُ غائبٌ لا يجي

فهنالك انتقضتْ معه لحظاتُ
لحظاتُ مضتْ هُنَّ لبُّ الحياة



قد هجرتُ المُنَى والهوى والشبابُ
ورحلتُ أنا نحو أرضٍ يَبابُ

ودفنتُ الغرامُ بين تلك الصخورُ
فعليه السلامُ ما توالى الدهورُ

(انواكشوط، موريتانيا، 1992)





مكوى

اغفري للقلب فالقلب سقيم	واسأليه فهو بالأمر عليم
سأج بين ضلوع في دم	ودموع قد تغشاه وجوم
لا ينام الليل من فرط الجوى	ونديم الحزن، يا بسس النديم
يا ملاذي من أسى رُوحى ومن	زفرت الشوق والشوق أليم
إنما قلبي لحـم ودم	فارحمي شكواه فالحب رحيم
حبنا باق عميماً أبداً	ما تغنى الطير أو هب التسيم
لا تقولي رحلت أيامه	حبنا اليوم جديد وقديم
حبنا كان عظيماً دائماً	وسيبقى ذلك الحب العظيم

(أنواكشوط، موريتانيا، 1995)



أشواقٌ قديمةٌ

القدس يا أنشودة المساءِ

وسُلم السماءِ

قلوبنا تهيم في الظلماءِ

تطلب رشفَ ماءٍ

وبيتنا مهجورٌ

والمسجد المعمور بالضياءِ ..

يلقُّه الديجورُ

وفي ظلال القبة الخضراءِ

تنبجسُ المياهُ ..



تعشوشبُ الصخورُ

يا قدس مذ آذنتِ بالرحيلِ

أحملُ في لفائفِ الضلوعِ ..

أشلاءَ قلبٍ خافقِ الأشلاءِ

يفيضُ بالدماءِ

أذوبُ في جداولِ الدموعِ

فلترحمي بكائي

يا قدس بعد هجرنا الطويلِ



هل نلتقي في غابة الزيتون

في دربها الظليل؟

ونستقي من حَبْنَا القديم

كووسَ سلسبيل؟

يا قدس طال بيننا الفراقُ

وامتدَّت الآفاقُ

واشدَّتْ الأشواقُ

فهل إلى لقيائك من سبيل؟

(العيون، موريتانيا، 1991)



القدس والإعصار

القدسُ والإعصارُ والغروبُ

يشربُ من دمٍ ومن أحزانٍ

يقتاتُ من لحمِ بني الإنسانِ

والتينُ والزيتونُ . .

تلفَعَا أرديّةَ اصفرارٍ

والليل يدلهُمُّ باكفهارٍ

وضاع في بحر الدُّجى عنواني

وقبّة الصخرة في إصرارٍ



تُشرقُ في دُجَنَّةِ الظلامِ
تشدُّ قبضتين من فخارِ
تشقُّ صدرَ الليل بالأذانِ

يا قدسُ هل سيرحل الإعصارُ؟
وينتهي الهبوبُ؟
وينزوي في الأفق الغروبُ؟
ويحتفي عن أعين الزمانِ
في اليته . . في ذاكرة النسيانِ؟





يا قدسُ قد طالتُ بنا الكروبُ

فمزَّقِي الإعصاراً

وارْزِمِي بلجّة الدُّجى أحجاراً

تُحوِّلُ التَّيَّارَ

ما عدتُ أستطيع الانتظاراً

القدس والإعصارُ والسكونُ

والليل في دروبه نُغَنِّي

والموت من خلاله نكوُنُ

(العيون، موريتانيا، 1990)

ياسين

أهْوَ فَجْرٌ أَطَّلَ مِنْهُ الْجَبِينُ أَهْوَ حُلْمٌ نَعِيشُهُ أَمْ يَقِينُ ؟
كَمْ وَقَفْنَا عَلَى الدِّيارِ نُدْأِرِي أَلَمْ الشَّوْقُ قَدْ بَرَّأَنَا الْحَنِينُ
ذِكْرِيَّاتٌ لَنَا بِبَيْسَانَ وَالْقُدْسِ وَشَوْقٌ تَقَاذَفَتْهُ السَّيْنَيْنُ
وَأَهَالٍ لَنَا بَيَافًا وَحَيْفًا هَزَّنا نَحْوَهُمْ حَنِينٌ دَفِينُ
قَدْ أَمْضَ الْحَنِينُ يَا قَلْبُ لَكِنْ حَانَ وَقْتُ الْلِقَاءِ فَذَا يَا سَيْنُ
شَامَخَ الرَّأْسَ جَاءَ وَهُوَ قَعِيدٌ وَطَلِقَ الْيَدَيْنِ وَهُوَ سَجِينُ
يَبْذُرُ الْفَجْرَ فِي دُرُوبِ اللَّيَالِي يَبْذُلُ النُّورَ وَالزَّمَانَ ضَنِينُ
وَجَنَّةُ الْقُدْسِ قَدْ أَنْارَتْ وَ"عَزُّ الدِّينِ" قَدْ عَزَّ فِي خُطَاهُ الدِّينُ

(صنعاء، اليمن، 1998)



هَجْرِي

هَجْرِي أَيَا حُبِّي

يَا مَبْتَغَى قَلْبِي

أَنْتَ النَّجِيُّ لِمَهْجَتِي الْحَيْرَى

أَنْتَ الضِّيَاءُ يَلُوحُ فِي الْفَجْرِ

وَالسَيْفُ فِي الْحَرْبِ

فَالْيَا يَا هَجْرِي الْحَبِيبُ

فَلَسَوْفَ أَسْقِيكَ الدَّمَاءَ

وَحَلِيبَ أُمِّي ..

وَدُمُوعَ أُمِّي ..



وعصارة الليمون والعنب الرطيبُ

أرميك يا حجري المضيءُ

علي أفجر ثغرةً ..

في حائط الليل البطيءُ

فلقد سَمتُ من الحياةُ

واللهو واللعب البريءُ

أفديك يا حجري

فلأنت أنت تخطُّ لي قدري





من بعدما رحلَ البُداءُ
وتبدَّلَ الفرسانُ في الحَضَرِ

(الجريف، موريتانيا، 1991)

الشهيد

يُنُّ إنَّ أَتَّ الأيتام من حَزَنٍ	فهُمَّ أن يداري عنهم الحَزَنَا
ويستعير عيون التآكلات فإنَّ	بكتُ جرى الدمعُ من أجفانه سَخِنَا
يطارد الموتَ مجشاً في مَظَنَّتِه	يَغْشَى موارده إن أدبرَ الجُبْنَا
يجودُ بالنفس إن ضنَّ الجواد، وإنَّ	خارتُ عزائمُ أهل العزم قال: «أنا»
يسترخصُ الروح في ذات الإله، وفي	ذات الإله يعافُ الأهل والوطنا
مَوْلَهُ بِإِحَاطِ الحُورِ مُفْتَتِنٌ	ولا تراه بغير الحُورِ مُفْتَتِنَا
باع النفيسَ وباع النفسَ محتسباً	لنفسه في سبيل الله مُمْتَهِنَا
لا يملكُ الناس في أمثاله ثمناً	لكن ربَّ البرايا يملك الثمنَا

(ساتا كلارا، الولايات المتحدة، 2004)



الصقر الجرع

رؤيدك لا تشكُّ وقع الجراح إذا الصقر أمسى مهيضَ الجناح
فللصقر هبَّاته في الضحى وللصقر أشواقه في الرواح
يصارع بالعزم لُمعَ البروق وقصفَ الرعود وعصفَ الرياح
ويستعذب المكث فوق الذُرَى ولا يرتضي العيش بين البطاح
أبيُّ عن الذلِّ مهما يكن مهيضَ الجناح عديمَ السلاح
صبورٌ على عاديَاتِ العدا فخورٌ بما حازَهُ من نجاخ
يقاوم ظلم الليالي لنا ويدفع عن وكرنا المستباح
هو النور في بحر ظلمائنا يبشِّرنا بقدوم الصباخ

(لباك، الولايات المتحدة، 2004)



الليل

يا أيها الليل المضجُّ بالدماءُ

صدري تحطم تحت صدرك باهتراء

وتكسرت مني الضلوعُ

يا أيها الليل المخضب بالدموعُ

هل من ضياء؟

إني أرى أشباحَ جندٍ بين أغصانِ اللهبِ

تتلاأُ الأنوارُ في وجناتهم

ما أدبروا ..

ما غادروا مع مَنْ ذهبُ



إني أراهم يُقبلون ..

بين الصواعق والزوابع والخطب

يا أيها الفجر الودودُ

أقبلِ بنورٍ واخضرارٍ وارتواءٍ

أقبلِ بأنفاس الورودُ

واسكُبْ على تلك اللحد ..

أقداح ماءٍ

كي يملأ النورُ الفضاءَ

كي ينعمَ الشهداء في دار الخلود

(العيون، موريثانيا، 1991)

الصباح المطر

لربك المتجلي	دع النعاس وصل
يغزو الكرى فيؤلي	وانضح محيّاك ماء
فانهض لربّ أجَل	ضاع الزمان بنوم
ونجوة وتملي	والهَج بتسيح فكر
عبر الدجى المضمحل	وانظر خيوط ضياء
وذاك ليل مؤل	هذا الصباح مغير
فانعم بماء وظل	روض الأخوة نادى
من دوجه المتدلي	واقطف ثماراً لذاذاً
حلت بقلب المحل	أخي زحوف الأعادي
جند الصباح المطر	وموكب النور يخذو



فانقرُ إليه خفيفاً على الجواد المُجَلِّي
لئن تَخَلَّى أناسٌ ما أنتَ بالمتخَلِّي

(انواكشوط، موريتانيا، 1994)

اسطنبول

أنتِ أرضُ الجمالِ أرضُ الرجالِ حدّثيني عن العهودِ الخوالي
 حدّثيني فالليل طال وغشّى بدّياجيرهِ جبينَ الهلالِ
 حدّثيني فالقلب يرقص شوقاً لأفاصيصِكَ الّيلِذاذِ الطّوالِ
 عبّو المجد في ترابك عطرُ عن يمينِ نثرتهِ وشمالِ
 والقبابُ التي كهالاتِ بذرٍ ساجاتٌ على أديمِ الليالي
 والمناراتُ صادحاتٌ بلحنٍ قدُسيّ مضخّ بالجلالِ
 فتداوي الجراحَ في كل رُوح وتُقلُّ الأرواحُ نحو الأعالي
 وكأني بالفتاحِ الشهمِ نادى في حشودِ الآسادِ والأشبالِ
 حملَ الوعدَ في يديه وفي جَنَدٍ بيّهُ نفسُ تواقّةٍ للمعالي
 فلنعمَ الأميرُ ذاكَ ونعمَ الـ جيشُ جيشُ يقودُهُ للنّزالِ

(اسطنبول، تركيا، 2010)



صنعا

أحببتُ صنعاَ ملءَ القلب فانبجستُ	روحي ينبع من الأشواق مندفقِ
أحببتُ فيها ضياءَ الفجر حين يُرى	ينسابُ بين ذراعيها على نسقِ
أحببتُ فيها رذاذَ الغيث حين يُرى	لئالئاً علقتُ بالصدر والعُنقِ
أحببتُ فيها جبلاً في السماء علّتُ	تُروِي شموخَ اليمانيّين للأُفقِ
أنى اتجهتُ أراها في مخيلتي	طيفاً يلزم في حلي ومنطلقي
أنى اتجهتُ يظل القلب في حزنٍ	من هجرها وتظل الروح في قلقِ
رياءُ صنعاَ لا رياءَ يشاكله	حمْلٌ بشذى تاريخك العَبقِ
سكبتُ روحي على خديّ حين غداً	للغرب مُجّةٌ والقلب فيك بقي

(واشنطن، الولايات المتحدة، 1999)

سرايفو

ما الذي يُجدي النحيبُ وخیالاتُ الأديبِ ؟
يا سرايفو اعتذاراً إن تغشاكِ اللهبُ
وأظلتكِ المنايا وتحداكِ المغيبُ
ثم لاذتُ أمةُ الإسلامِ بالصمتِ المريبِ
فاسألِي يافا وحيفاً واسألِي القدس السليبُ
واسألِي بغدادَ عن ذا واسمعي كيف تُجيبُ
يا سرايفو احتمالاً إن قسى الدهر العصبُ
سيزول الحزنُ يوماً عن محياكِ الكئيبُ
فغداً ينطلق الفجرُ إلى الكون الرحيبُ
ويصيح الديكُ شداً ويُغني العنديلُ
إنه الليلُ تولى إنه الصبحُ قريبُ

(الجرىف، موريتانيا، 1993)



فَرِيدٌ وَفَرِيدَةٌ

الشَّعْرُ غَنَى نَشِيدَهُ	خَفِيفُهُ وَمَدِيدُهُ
هَذَا فَرِيدُ زَمَانٍ	زُرْفُهُ لِفَرِيدِهِ
من بعد طولِ انتظارٍ	مِنَّا سَنِينَ عَدِيدِهِ
طال التَّردُّدُ مِنْهُ	كَانَتْ خُطَاهُ وَيْدُهُ
حَتَّى سَمْنَا جَمِيعاً	تَهْدِيدُهُ وَوَعِيدُهُ
واليومَ ها هو يخطو	عَبْرَ الدُّرُوبِ السَّدِيدِ
إِنِّي إِذْنُ لَسَعِيدٌ	وَذِي الْجُمُوعِ سَعِيدُهُ
وَذِي التَّهَانِي تُشْرَى	وَذَا خِتَامُ الْقَصِيدَةِ*

(أنواكشوط، موريثانيا 1995)

* تهنئة للصديق الدكتور محمد محمود سيدي بزفافه.



محمد المختار الشنقيطي



وَكَلَّمْتُمُ آهَاتِنَا فِيهِ الصُّدُورُ
وَنَبَذْلُهُ أُرُوَاعِنَا فِيهِ الْعَبُورُ

سَدَفُنَا أَلَامَنَا فِيهِ الْحَسَا
وَنَعْبُرُ لِلنُّورِ مَلْجَأَ الْخَطَرِ

هذه جراحٌ رومي بين يديك، عسى أن تجد فيها مرآةً لروحك، أو نافذةً على شغاف قلبك. فعجائب القلب لا تنقضي، وجراح الروح نوافذ للنور، كما قال جلال الدين الرومي: "إن الجرح هو النافذة التي يدخل منها النور إليك."



إسطنبول، تركيا
+90 551 163 82 25
wasm.bookstore@gmail.com

وسم
للنشر والتوزيع